دكتور

عادل صادق

سقوط رجل

[مؤسسة حورس الدولية]



سقوط رجل

الناشـــــــر :

مؤسسة حورس الدولية للنشر والتوزيع

١٤٤ ش طيبة ـ سبورتنج ـ الإسكندرية.

ت/ فاكس : ٠٣/٥٩٢٢١٧١ ـ ٠٣/٥٩٣٠٥٩٨

الطبعـــة الأولـــى

(٢٠٠٥)

اسم المؤلف : د/ عادل صادق.

اسم الكتاب : "سقوط رجل".

مراجعة لغوية : عبد الرحمن الجبالي.

إخراج فني : سعيد شحاتة.

رسوم الغلاف : ممدوح طلعت.

كمبيوتر جرافيك : أحمد أمين.

مدير النشر: : مصطفى غنيم.

رقم الإيداع : ١٨٤٤٦/ ٢٠٠٤

الترقيم الدولى : 977-368-042-8

متعة الحياة أن تستمتع بالجمال،،،

وفخر الحياة أن تصنع الجمال،،،

وزهو الحياة أن تكون جميلاً،،،

"المؤلف"



محتويات الكتاب

الواجد والموجود

المعنى سبق في وجوده الأشياء، حتى الكون لم يك شيئاً لأن معنى بليغاً قد سبق وجوده، ومعنى هذا الكون هو الخلق والقدرة، والمعنى الأعظم هو الواجد والموجود، والموجود لا يستطيع أن يحيط بالواجد، ولكن رحمة الواجد في أن جعل نفسه قريباً من قدرة الموجود على التفهم والاستيعاب، فجعل الواجد نفسه في صورة معان يدركها الموجود بعقله وقلبه، فكان هو الرحمن الرحيم إلى آخر تسعة وتسعين معنى اتصف بها.

فأحب الموجود الواجد وعاش في ظل معانيه ينعم بحياة أساسها الحب والصدق، ولم تطلب الحياة إلا حينما أدرك المعنى من وجوده هو ذاته، وبذا أصبح للموجود معنى؛ معنى قصده الواجد، أي أن معنى الموجود سابق على وجوده.

وحين نظر هذا الموجود حوله فرأى الأشياء التي أذهلته تطلع إلى الواجد في حيرة، فاطلعه على الأسماء، والاسم معنى، الاسم رمز، الاسم مغزى، ولذا خطا الموجود أولى خطواته على الأرض بفضل المعرفة التي استقاها من الواجد.

وأدرك الموجود حين نضج أن المعاني ليست بالضرورة تتجسد في أشياء مادية، وبخاصة المعاني الجليلة، فالإعجاب قد يكون بوجه امرأة

جميلة يجسد معنى الجمال ولكن التجسيد الجليل للجمال يكون من داخل هذه المرأة، يرى الرجل امرأة فتصرعه غرائزه من هول جمالها وحين يقترب مـــن داخلهـــا يشعر وكأنه في محراب النقاء فيتجاوب داخله بفرحة عميقة مذهولاً بجمال أسمى.

والأمانـــة قـــد تكون مع إنسان ما في نطاق عمل أو مشاركة وهي معنى جميل يجسد درجة من درجات السمو في نطاق علاقة إنسان بإنسان آخر، فتؤدي الأعمال على خير وجه فيما يعود على الطرفين بالفائدة، لكن المعـــنى الجليل للأمانة هو ذلك الوثوق بوجود الخير وشيوع الفضائل في داخل إنسان متعه الواجد بأحسن تكوين، وهنا يتجلى جمال الإنسان الحقيقي في حبه للخير والفضيلة.

أما معنى الصدق فهو إعلان الحقيقة ولا شيء غير الحقيقة فينتشر الـــنور، فـــنرى بوضوح ونعدل المسار ونصلح الأخطاء فتعم الفائدة، أما المعـــنى الجلـــيل فإنه معنى أن يكون الإنسان نفسه، أي ذاته الحقيقية، أن يكـــون علـــى طبيعـــته، واثقاً شجاعاً، وبذلك يتاح لنا أن نطلع على جماله الحقيقي أي حجم الخير داخله، وبذلك نطمئن، يزول الشك، ننام بعمق.

وللجهاد أيضاً معنى عظيم، إنه الدفاع عن الأهل والأرض أي الذود عن الوطن، وما الوطن إلا أهل وأرض، وهو معنى أيضاً ينضم إليه معنى الشـــجاعة، ولكـــن المعنى الأعظم للجهاد أي المعنى الأجل هو الدفاع عن الحـــق، الحق بمعناه المجرد، الحق المستمد من الواجد الحق، فالأصل هو الحـــق، وأصـــل الجهـــاد هو حماية الحق، الجهاد مع النفس، والجهاد ضد الشر، ولابد للشر أن يندحر، ولابد للحق أن يعلو وأن ينتصر.

وارتفـــاع راية الحق هو تحقيق لمعنى أو لفكرة وجود الخير والشر معاً في صراع داخل الإنسان وعلى وجه الأرض بين البشر، وتكون فرحة الإنسان غامرة بانتصار الحق، أي انتصار الخير على الشر، أي الانتصار للواجد، وهنا يتأكد للإنسان أن الواجد قد صدق وعده، فتفيض عينه بالدمع، ويسجد ويقترب.

والشر مصدره البشر، أو بعض من البشر، ومعنى الشر هو الفساد، والإفساد، هو إشاعة الظلام والظلم، وإهدار الفضيلة ونصرة الرذيلة وسلب الحقوق وكسر النفوس وحط الكرامة ونشر القبح وتشويه الجمال، والمعنى الأعمق هنا يكشف عن البعد الغريزي في الإنسان أي عن الجانب الدوني، ولقــد خلق هذا الجانب في الإنسان ليترك له المجال لمجاهدة الهوى ولقهر ضـــعفه ولدحـــر نزواته ولكبح عدوانيته ولنبذ ظلمه وبغيه، ولكن الغرور يجعـــل الإنسان يهبط، والافتتان بالدنيا يميل بالإنسان ناحية الفساد، والغفلة تدفـــع الإنسان للبغضاء والعداء، وقوة المادة وسحرها تجعله ينتصر للباطل ويزهو بقدرته على الخداع والتضليل والتزييف والغش.

أمـــا الخير فمصدره أيضاً البشر، أو بعض من البشر ومعناه الفعل الطيب الذي يعود بالنفع على الناس، معناه إعلاء الحق ونشر الفضيلة وبث الخلق القويم.

هـــذا هـــو المعنى المادي المباشر للخير أما باطنه النوراني، المذهل لجمالـــه، المبهر بضيائه فهو الرحمة، وباطن الرحمة الحب، وإن شئت أن تجمـــع فتقول الرحمة والحب وإن شئت أن توجز فتقول الحب، ففعل الخير هـــو حـــب، وفعل الحب هو خير، والحب هو أقصى لذة معنوية يشعر بها الإنســـان، إنه التحليق إلى اقرب نقطة من الواجد، التحليق إلى الدرجة التي

يـتحملها الموجود، إنها الحالة التي يشعر فيها الموجود بحب الواجد له فإذا شـعر الموجـود بحـب الواجـد له فرح واطمأن وشعر بالحب تجاه كل الموجـودات، وفضّـل الخـير علـى الشر، فرحم وعطف وآثر وتصدق وضـحى وسـاعد وتفـانى وأخلص وصدق وأوفى وبشر وعذر واعتذر وتسامح.

وهذا معناه أن الخير يحمل كل المعاني الجليلة مجتمعة، فهو فيض مباشر من نور الله يستقر في الكيان البشري مثلما يستقر في شجرة مثمرة، وارض طيـبة ونهـر عذب وهواء عليل وقمر منير وشمس مضيئة وليل سـاحر ونهـار واحد وفجر مهيب وزهرة ذات لون بديع ورائحة مبهجة، مـثلما يستقر في وجهك يا حبيبتي وينتشر على أرضك يا وطني ويفرض وجوده بينكم يا أهلي ويعلو فوق رؤوسكم يا أصحابي.

إنه الخير الذي يجعلني يا صاحبي لا أعرفك شخصياً ولكنني أحبك، وأنـا لا أعـرفك شخصياً لأنك تحولت إلى معنى، ولقد كنت بشراً موجوداً ولكـنك تحولت إلى معنى، معنى للخير، وذلك حين جدت بروحك لوطنك لـيس انتصـاراً لوطنك فحسب ولكن انتصاراً للحق، انتصاراً للخير، أنت أعظم موجودات الواجد لأنك حققت أمل الواجد فيك.

لأنـك تحولـت إلى معنى، لأنك استهنت بتكوينك المادي وانتبهت لتكويـنك السـامي العالي، فضحيت بجسدك، فجرته في داخل صميم الشر لينهار وليتفتت وليتبعثر أشلاء وحطاماً، وصعدت روحك الطاهرة عالية في السـماء، وسـتظل ترتفع وترتفع لتصل إلى أقرب نقطة من الواجد. وهنا تحـتفل بـك السماء وترحب بك ولن ينادوك باسمك في السماء، ليس مهماً اسـمك، فأنـت معنى، أنت رمز، والجهال في الأرض يبحثون عن لحمك

ودمك وعظامك، وذلك ليقتلوك.. ها.. ها.. ها.. إنهم أغبياء، إنهم يعتقدون أنك شخص واحد إذا تخلصوا منك استراحوا واتسعت الدنيا لشرورهم، إنهم لا يعرفون أنك الآن لم تصبح كائناً من لحم ودم وعظام، بل أصبحت رمزاً للخـــير، أصـــبحت قدوة لملايين غيرك، ملايين تحولوا إلى معان وهم في شوق إلى أن يتخلصوا من أجسادهم، في شوق إلى أن يفجروا أجسادهم في قلـــب الشـــر فيـــتحول إلـــى أشلاء وتراب ودماء فاسدة تأبى الأرض أن تشربها.

مـــا أعظم البشر حين يتحولون إلى رموز جميلة ومعان جليلة، ما أعظم البشر حين يجسدون الخير.

ما أعظم الإنسان حين يكون ظلاً للرحمة وطيفاً للحب.

وتمضـــي عجلة الزمن، ويموت بشر، ويخلق بشر جُدُد، ولا يبقى مـــن الإنســـان إلا المعـــنى، أو يصـــبح رمزاً، نوراً يهدي، وفكراً يضيء وتمضـــي رســـالته من جيل إلى جيل، وقد ينسى الناس مكان رفاته ولكن يرونه علماً يرتفع إلى عَنان السماء، وقد تمحو ملايين السنين اسمه وحينئذ يتحول إلى قيمة مطلقة.

نصـــيحتي، لاتبحثوا عنه فهو غير موجود بلحمه ودمه وعظامه، بل هو الآن معنى بليغ، وربما تعداه ليصبح قيمة مطلقة وهيهات أن تنجح قوى الشـــر فـــي هزيمة قيم مطلقة وهيهات أن تنجح قوى الشر في هزيمة قيم الخير التي يتولى حمايتها الواجد.



الكل في واحد

كـل شيء في الحياة له حركته الخاصة، وكل حركة يحكمها قانون لتوفي بالغرض منها، فتتحرك المياه من الأرض إلى السماء، وتتحرك نفس المياه من السماء إلى الأرض، هناك قانون للحركة من أعلى، وهناك قانون آخـر للحـركة إلـى أسفل، وإذا تعطل قانون توقفت الحركة، وتوقفها هو المـوت، هـذا هو تعريف الموت، اللاحركة، فإذا تعطل صعود الماء من الأرض إلى السماء، وإذا تعطل هبوط الماء من السماء إلى الأرض، ماتت الأرض وكل من عليها.

ويموت الإنسان حينما تتعطل حركة الدماء المشبعة بالأكسجين من القلـب إلى الأنسجة عبر الشرايين، وحين تتعطل عودة الدماء من الأنسجة إلـى الـرئة عبر الأوردة لتتم تنقيتها وتحميلها بالأكسجين. وحين تتوقف حـركة الدماء تتوقف كل الأجهزة عن العمل، وحينئذ لا تجد الروح مبرراً لسـكن هذا الجسد فتغادره، وهنا يعلن موت هذا الإنسان إذ لا يصح لجسد حـياة بعـد أن تـتركه الروح، ولا أحد يعرف من أين البداية، هل ترحل الروح أولا فتتوقف الأجهزة أم تتوقف الأجهزة فترحل الروح، أيهما يعطي الشرعية لوجود الآخر، أيهما أسبق في الوجود، الروح أم الجسد؟ وإذا كان الجسـد يظـل معنا في الأرض جنباً إلى جنب مع الأحياء، إلى أين تذهب الروح؟ كل ما نعرفه أنها تصعد إلى بارئها، وعند هذه النقطة لا يوجد لدينا أي معلومـات، لكـن الـذي لا شك فيه أن هناك مكاناً خاصاً تتجمع فيه

الأرواح الصاعدة منتظرة يوم البعث لتعود إلى الأجساد ليبدأ شكل جديد من الحياة.

وإذا كانت الروح تصعد فهذا معناه أنها تظل حية بعد موت الجسد، وهـذا شـيء منطقي لأن الروح ذاتها هي مصدر الحياة، إذن الموت هو مـوت شكلي فقط، موت مادي، لكن يظل الإنسان حياً في صورة أخرى، وهـي صـورة الروح، لذا فالجسد هو الوعاء الممكن ليوجد الإنسان على الأرض، فـإذا انتهى دوره على الأرض فلا يوجد مبرر لوجود الجسد، لذا فالإنسـان لا يمـوت حقـيقة، بل يظل في صورة ما كمرحلة وسطى بين حياتيـن، حـياة انتهت وحياة قادمة لا نعرف متى، لكنها قادمة بكل تأكيد. ومن أين جاء التأكد من أن حياة أخرى تنتظرنا بعد الموت؟

هـذا التأكد مصدره حياتنا الدنيا التي نعيشها في هذه اللحظة، فهي حياة لها معنى، ولا يمكن أن تفضي حياة لها معنى إلى لا شيء، وهي حياة لهـا معـنى لأنهـا أسست على قوانين ليكون هناك نسق أو نظام أو شكل معين، ولتمضي الحركة بشكل منطقي، أي لا عبث، لا عشوائية، بل هناك طـريق مرسـوم ينتهـي إلى هدف. والشيء الوحيد الذي يجعل الإنسان متشـبثاً بالحـياة هو أن لها معنى، وهو يدرك هذا المعنى، ويدرك أن له نصيباً في تحقيق هذا المعنى، أي أن الذي يسهم في تحقيق معنى الحياة هو الإنسان ذاته، فالحياة على الأرض هي حركة الإنسان على الأرض، سعيه، عمله، عاطفته، فكره، إبداعه، فالأرض هي ملكه، هو قائدها، هو حارسها، هو معمرها، لأنه هو الخليفة، خليفة الله في الأرض.

ولذلـك يود الإنسان لو أنه عاش ألف سنة، والإنسان يكره الموت لسـببين، أولهمـا لأنه يحرمه من أحبائه، وثانيهما أنه لا يدع له الفرصة

للاستيعاب الكامل للحياة والاستمتاع بها والإسهام في تحقيق رسالة، يمضي الزمـــن بســـرعة دون أن ندرك أنه يمضي رغم أننا نحتفل بأعياد الميلاد، ونحيـــي ذكـــرى أيـــام مهمة في حياتنا، ونفاجأ بأننا كبرنا، ثم هرمنا، ثم انحنينا، ثم تساوينا مع الأرض، إلى أن نغوص في أعماقها، ونصبح جزءاً منها، ويتحقق قولُ إننا منها وإليها. ورغم قِصَرها إلا أنها ممتعة في بعض أجـــزائها، حتى لحظات الألم ما هي إلا مبرر لنجدَّ في البحث عن السعادة أو لنصنعها بأيدينا.

والســـعادة لها صورٌ كثيرة، بسيطة ومركبة، مثلاً راقب وردة وهي تـــنمو، أو اروها بيدك، تابع مراحل تطورها، تأمل التكوين الجمالي البديع لأوراقهـــا ودرجات اللون المختلفة وهي تعمق يوماً بعد يوم إلى أن يكتمل النســـق شـــكلاً ورائحة، وهنا ينبثق المعنى، ما معنى أن يخلق الله الورود والـــزهور؟ المعـــنى هـــو مـــنح سعادة للإنسان ليحب حياته على الأرض ويستمر فيها.

والسعادة تتحقق حين تستثير الوردة مراكز الجمال في مخ الإنسان، فيشـــعر بالنشـــوة، الجمـــال هو نوع من الغذاء الإنساني، صنع خصيصاً للإنسان تكريماً له، وتأكيداً على أنه أرق المخلوقات.

وهـــناك سعادة أخرى حين تبدع شيئاً جميلاً ينبثق منه معنى بليغ، حيـــن تكتب شعراً أو ترسم لوحة، أو تصوغ لحناً، أنت هنا صانع للجمال، مـــنحك الله بعضاً من قدرته وهو أن تخلق وتصور وتجسد، وبذلك تضيف إلى مخزون الجمال، وبذلك تسهم في تصدير السعادة للآخرين، وهذا معنى بليغ آخر تصبح سعادتك في إسعاد الآخرين، وهذا شيء لا يقوى عليه إلا إنسان خلاق.

وهـــناك سعادة أخرى وهي اشتباكك مع إنسان آخر في علاقة، وما أمـــتع وجـــود هذا الإنسان الآخر في حياتنا، إنه المعنى كله، إنه هو الحياة بعيـــنها، إنهـــا الســـعادة المطلقة، إنها التسلية والتسرية والتنسية والترويح وزوال الغـــربة والائتناس، والتخفيف من الهم، ونصف زوال الغم، وبعض تقلـــيل العبء والاستناد والارتكاز، لا طعم للحياة بدون الآخر، صديقاً، أو زمـــيلاً أو جـــاراً، أو حـــتى عابر سبيل، وثمة سعادة لها طعم آخر وهي الـــتلاحم ولـــيس مجـــرد اشتباك مع إنسان من الجنس الآخر. إنسان واحد بعينه، اختيار مطلق محض، فهو سكن للروح، وهو المظلة الحقيقية للمودة والـــرحمة، وهو غاية الحياة ومنتهاها وجدواها، الأمن والأمان، الطمأنينة والســـكينة، الســـلام والاستقرار، الثبات والديمومة، رفيق الطريق والعكاز حيـــن المحنة، شريك السرور والهناء وماسح الدموع ومخفف الآلام، ومن خلالـــه ومعـــه تتحقق لذة الملامسة والقبلات وممارسة الحب، وتلك فرحة للجســـد، تدفعـــه إلى حب الحياة والتشبث بها، والحفاظ على رونقه وجماله وحيويته، وجاذبيته، والتعلق المجنون بالشباب، لكن هيهات، ثم هيهات، إذ لا شـــيء يوقـــف عجلة الزمان، فالزمان يتحرك وهي حركة إلى الأمام، وحـــركة الزمان ذاتها هي دليل حياة، دليل على أننا ننمو ونكبر وننضج، وكلما نضجنا، سبرنا الغور أشمل وأعمق، فهمنا لماذا جئنا وإلى أين نسير، وماذا بعد ذلك.

إنـــه الإيمـــان عن فهم، إنها رؤية الخالق المتجلية في القوانين التي تسّـــير الحـــياة، وبذلـــك تكتمل الصورة وتهدأ النفس الحائرة ويثبت العقل الشقي، ويتجلى المعنى،وارى نفسي متناهياً في الصغر، ومتناهياً في الكبر، صغيراً بالنسبة لحجم الكون الهائل، غير المحدود، وكبيراً في حجم ما أملك

مـــن عقل، ذلك العقل القادر على استيعاب وجود الخالق، وبذلك يكون هذا العقل في حجم ذلك الكون الهائل اللامتناهي، وهذه هي سمة العقل البشري، وهــذه هـــي وظيفته الأولى والأساسية أن يدرك الخالق، وهو إدراك كلي شـــامل نـــابع من رؤية كلية شاملة، إذ لا يكفي أن تدرك الله في جزئية بل يجــب أن تـــدرك هذه الجزئيات في تكاملها وتواصلها وتشابكها وتفاعلها لتستنبط منها القوانين الثابتة الصارمة التي يتحقق من خلالها معنى كلي.

فلا يكفي أن تدرك الله في خلقه للنملة التي تزحف وتكاد لا تراها، ولا يكفـــي أن تدركه في وردة أو سنبلة قمح، ولا يكفي أن تراه في حركة عضـــلة القلب وهي تدفع بالدم إلى كل خلية في الجسم، أو في عمل الكلى، كالمصـــفاة، وهي تحجز الماء والمعادن وتمنعها من النزوح مع البول، ولا يكفـــي أن تـــدرك الله فـــي تعاقب الليل والنهار، أو في نمو جنين من بين أحشـــاء امـــرأة أو في زرع حب في قلب أم، أو استجابة ثدي لنداء طفل جـــائع، ولا يكفـــي أن تـــرى الله في معمل العسل الكائن في بطن نحلة أو معمـــل اللبـــن الكائـــن فـــي بطن حيوان ثديي بتلك النسب الغذائية الدقيقة الضـــرورية لحـــياة ونمو مخلوق وليد، ولا يكفي أن تدرك الله في التوازن بين بلايين المجرات والكواكب التي تجوب الكون.

الله غـــير موجود في شئ واحد من هذه الأشياء، الله الحق الحقيقي ينبثق من علاقة هذه الأشياء بعضها ببعض، لأن بينها تكاملاً، لأنها مربوطة بعضـــها بـــبعض، فحركة النملة التي لا تكاد ترى مرتبطة بحركة الأرض وحـــركة الماء وحركة الكواكب، ونمو الزرع وتخليق جنين وحركة هواء، ووجـــود نسب دقيقة محسوبة من العناصر في الغذاء والماء والهواء تحفظ لكل المخلوقات حياتها.

إنهــا حركة واحدة يخضع لها كل شيء، إنه قانون واحد يحكم هذه الحــركة، لا يمكــن أن تستقيم أو تستمر حياة شيء دون التصاقة بالأشياء الأخرى، كل واحد متكامل.. أحد.. صمد.. هو الله ..

حديقة الورد

خلق الله الفرح ليحب الإنسان الحياة.. فحب الحياة والفرح قرينان.. وأنت في حالة الفرح يخف وزنك فتطير لتحضن الدنيا كلها بعينيك وتراها غايـــة في الحسن تسر الناظرين وتفعم قلب العاشقين لها.. ما أجمل الحياة فـــي ظـــل الفرح.. وما أمتع الدنيا في ظل العشق.. والمتعة تكون للروح والجسد معاً.. ترقص الروح وينتشي الجسد.. تسعد الروح بأنها تسكن ذلك الجسد ويسعد الجسد لأنه وعاء لهذه الروح.. وهذه هي الحياة.. وما أجمل الحياة.. أنا حي معناها أنني قادر على الفرح.. وأنا فرح معناها أنني قادر على العشق.

مـــن يدخـــل حديقـــة الـــورد يسر خاطره وينشرح صدره.. اللون والرائحة وروعة التكوين.. قدرة الخالق تتجلى في أبسط مخلوقاته.. مجرد غصـــن وأوراق إلا ان النســـق الجمالي يذهل العقل ويشغف القلب ويدعو للســـجود أن سبحان الله.. والراحة النفسية تعم لا إرادياً لا تفرق بين عالم وغافل ولا بين مؤمن وعاص.. إنها الرحمن بعينها.

غـــير أن المتأمل بعمق يرى جانباً آخر في حديقة الورد. فالأشواك يفـــوق عددها الورود.. تجرح وتدمي.. والوردة لا تموت فقط بانتزاعها، وإنمـــا تشيخ أيضاً على غصنها فيزول عنها جمالها وتتهاوى ذبولاً وجفافاً وتسقط فيبتلعها الطين.

ومن بين أحضان وردة تموت ينمو برعم جديد فإذا الموت والحياة يجـتمعان في آن واحد.. بل وهما متلاصقان يقود أحدهما إلى الآخر.. من المـوت تولد الحياة.. والحياة تفضي إلى الموت.. تعاقب يشبه حركة الليل والنهار.. والأمر ليس سهلاً إذ يتم وفق أعقد العمليات الكيميائية التي ينتج عـنها حـياة.. والحـياة نماء وازدهار واكتمال.. ثمة روح تسكن الوردة الحـية.. روح مـثل تلك التي تسكن الإنسان فتجعله ينمو ويتحرك ويفكر ويشعر.. الروح سر الحياة ومصدر الحركة.. وفي وقت محدد تتوقف تلك العملـيات الكيميائية إيذاناً بمغادرة الروح فتتوقف الحياة والحركة معاً.. ثم يكون الاندثار.. إن حديقة الورد محملة بأجل المعاني.. وأبرز المعاني أن الجمـال يخـرج من باطن الأرض.. من الطين.. اللون والرائحة والنسق البديع.

ثـم يبرز معنى آخر وهو التعدد والاختلاف فلا تمل العين ولا يفتر الفـؤاد ولا ينعكس العقل ولا تعتاد الأنف.. فالبذور تحمل جينات مختلفة.. وكل مجموعة جينات مختصة بوردة بعينها ذات لون خاص، وذات رائحة خاصة وذات شكل مختلف..

وفـي النهاية ذات أثر نفسي معين.. إن كل وردة لها رسالة.. لها دور.. لها معنى.. إن كل وردة هي رمز لشيء ما.. لا شيء يخلق عبثاً.. فأنت حين تمر بحديقة الورد يشملك شعور معين إزاء كل مجموعة ورد.. فتنتقل من إحساس إلى إحساس.. تختلف حالتك النفسية أمام كل مجموعة.. إن الـورد يحـادث الإنسان ويحاكيه.. إنه حوار متبادل.. كل منهما يقول شـيئاً للآخر همساً وسراً.. وهو حوار قد يكتنفه غموض وإبهام لأنه حوار غريب.. حوار بين الإنسان والورد.. ثم ينتقل الإنسان إلى مجموعة أخرى

فيــبدأ حواراً مختلفاً.. والورد هو الذي يفرض نوع الحوار وكنه الكلام.. الــورد هــو الذي يثير الأفكار ويحرك المشاعر عند الإنسان.. الورد هو الــذي يــأخذ المبادرة.. كلام الورد كالموسيقى.. تناغم صادر عن امتزاج اللون بالراحة بالنسق.. وكأنها موسيقى قادمة من السماء فيسمعها الإنسان بروجه لا بأذنيه.. الموسيقى تتكلم.. وهو كلام غاية في التجريد.. فيتجاوب الإنســان بكــلام مقابل.. ولكنه أيضاً كلام في غاية التجريد لا تسمعه أذن ولكنه يأتي في صورة مشاعر وأفكار..

وقــد يــتجاوب الإنســان بلحــن مقابل يعبر عن حالته الوجدانية والذهنية.. لحن من إبداعه أو لحن ارتبط بذكرى.. فحديقة الورد هي حديقة الإبــداع والذكريات.. وجميعها هي ألحان حب.. فيقف الإنسان أمام وردة يخــتارها ضمن العديد من الورود نوعاً وكماً ليقول لها أنت في مثل جمال حبيبتي.. فترد الوردة عليه وتقول أشهد أن حبيبتك هي أجمل مخلوق على وجــه الأرض.. وأمــام وردة أخــرى ليقول الإنسان لها أنت أجمل هدية لحبيبتي.. فترد عليه الوردة: سأنقل لحبيبتك صدق مشاعرك وأقول لها كم أنت تحبها.. ما أسعدني أن أكون رسول حب.

وأمــام وردة أخــرى بعيــنها يقول الإنسان: أنت تذكرينني بحبي القديــم.. وإذا بنســمة شجن محملة برائحة الذكريات تلمس كيان الإنسان بوداعــة وهنا تزدهي الوردة وتقول: إن ذكرى الحب لا تموت وأنا ذكرى الحب.

وأمام وردة أخرى بعينها ذات درجة معينة من درجات اللون وذات رائحة شديدة الخصوصية ثم إن لها شكلاً قد يبدو غريباً يقف الإنسان حائراً لحالــة مــن القلق الرقيق انتابته فترد الوردة على مشاعره قائلة: أنا وردة

الحـيرة والقلـق لأستثير قلوب العاشقين وأنزع النوم من عيونهم لينتبهوا فالحب مثل الورد يحتاج لعناية واهتمام.. يحتاج إلى حنان وأمان.

ويهـرب الإنسـان إلى وردة أخرى فإذا حزن أكثر رقة يغلف قلبه ويحاول أن يجد منفذاً إلى داخله.. إنها وردة توحي بالوحدة.. هي والإنسان معـاً دون ثالـث.. وتقـول الـوردة للإنسان لا تبتئس.. أنا التي سأؤنس وحدتك.. أنا رمز للمعاني الجميلة التي تبحث عنها ولا تجدها.. لا يحصل الإنسـان علـى كل ما يريد من الحياة. بعض حصادنا في الحياة هو الحلم والتمني.

كتـب على إنسان ما أن يظل وحيداً.. ولا يخفف من ألم وحدته إلا الورد لأن الورد يتكلم ويغني ويتنفس ويوحي بأجل المعاني.. الورد يبعث الحـياة فـي البيـت الخاوي الذي رحل عنه الأحباء أو الذي لم تطأه قدم حبيـب.. الـورد بديـل الحبيـب.. إذا لم يجد الإنسان إنساناً يحبه فليحب الـورد.. وإذا فقـد الإنسان إنساناً يحبه فليملأ مكانه بالورد.. الورد يؤنس وحدتـه.. الـورد قـادر على تبادل الحب.. ممارسة الحب مع الورد هي ممارسة روحية.. وياللعجب من صنع الله للإنسان.. فبعض الناس تمارس الحب وهو ليس حباً مع حيوانات وبعض الناس تمارس الحب مع الورد.. وبعـض الـناس تمارس الحب وليس حباً مع البَغِيّ وبعض الناس تمارس الحب وهو حقيقي مع الحبيب تحت مظلة الورد.

والـورد الـذي يؤنس وحدتنا هو ورد يوحي بالأمل لأنه يؤكد أن الحـب موجود.. أن الحب حقيقة، وبناءً عليه فالحبيب سيأتي يوماً ما.. إن وجود الحب.. سابق على وجود الحبيب.. فإذا وجد الحب فإنه يحمل معنى احتمال مجيء الحبيب.. ما دام هناك ورد فهناك حب.. وما دام هناك حب

فهـناك حبيب. وحبوب اللقاح هي رمز للحياة والحب.. فهي وسيلة الورد فـي ممارسـة الحب.. وهي أشبه بالقبلات البريئة التي تحط الحبوب على قلـب الورد.. مجرد قبلة يبزغ منها برعم.. البرعم هو دليل الحب ودليل الحياة.

ورغـم قدوم الشتاء فإن البستاني لم يكف عن العمل.. فالحديقة لا تنضـب في الشتاء.. وهذا البستاني ليس فقط خبيراً في الورد بل هو أيضاً خبـير في النفوس وخبير عطور.. وخبير في ألحان الورود ولغة الزهور وحوارات الطيور.. ولهذا فهو أكبر خبير في العشق.

جاءتـه فـي الصباح المبكر سيدة طاعنة في السن تقوس عمودها الفقـري بفعل سبعين عاماً حملتها على ظهرها.. طلبت ورداً.. فهم الخبير مـن عينـيها أنها تعيش وحيدة.. مات عنها زوجها بعد أربعين سنة حباً.. استمرت في الحياة من بعده بفضل الورد.. إنها لا تستطيع أن تعيش بدون الـورد.. الـورد يجعلهـا متماسـكة ومتوازنة ويجعل للحياة معنى وقيمة وهدفاً.. والورد يجعلها تردد أن الحياة تستحق أن نحياها.

ثـم تلجأ إلى البستاني امرأة متوسطة العمر ذات حسن رائع وذات كـبرياء.. عرف الخبير من خطوتها أنها عاشقة ولهانة.. أخذت تتطلع في كـل اتجـاه وتتنفس بعمق وكأنها تريد أن تستحوذ على كل العطر ليسكن صـدرها.. والشـتاء يدفع بلفحات من هواء بارد تضطر الورود للتمايل.. طربـت المـرأة الجميلة لهذا المنظر فدندنت بلحن طروب زاد من تمايل الـورد.. صـوتها في مثل جمال وجهها.. أعطاها البستاني وردة كالملكة لتهديدها حبيبها.. ثم جاءه رجل تعدي منتصف العمر على استحياء فعرف بخـبرته أنـه لا يريد أن يبين أنه عاشق.. فأعطاه وردة ذات دلالة ليهديها

لمحبوبــته الصغيرة. وتسربت إلى الحديقة طفلة قد نضجت بقلبها قبل الأوان فأحبــت.. نافســت الورد الأحمر بحمرة وجهها من شدة الخجل.. طمأنها البســتاني أن الحب لا يعرف قوانين الأعمار وحدودها، إن أي خفقة للقلب هـــي حب.. الحب حب.. منحها وردة برعمية دليل براءة وصدق لتهديدها لحبيبها.

وعلى غير توقع دخل رجل غريب المنظر الحديقة.. اكتأب البستاني.. داهمــته مشــاعر مختلطة برز منها شعور الأسى.. مضى الرجل الغريب حتى نهاية الحديقة وبلغ أطرافها حيث الورود الصامتة المعطلة من الرائحة.. جمع بعضا منها.. سأله البستاني لمن تريدها.. أجاب الرجل الغريب بصوت لا يحمل إلا معنى النهايات: أريدها لأشخاص تقرر رحيلهم.

في اليوم التالي علق البستاني يافطة على حديقته مكتوباً عليها حديقة الحياة والموت.

رائحة الجنة

هــل من الممكن أن تكون الرائحة شعوراً نفسيًا وليست واقعاً مادياً لابد من توافره ليتحقق الإحساس بالشم؟

نعم.. وقد نشم رائحة ما دون أن يكون هناك مصدر لهذه الرائحة.. ولــيس هذا نوعاً من الهلاوس المرضيه وهي أن يشم الإنسان رائحة ما أو يســمع كلاماً أو يرى منظراً وكأنه واقع مادي ملموس دون أن يكون هناك مصــدر خارجي لهذه المدركات الحسية.. والمريض صادق حينما يقول أنا أشــم أو أســمع أو أرى.. ويكون السبب في هذه المدركات المادية الزائفة اضطراب في كيمياء المخ.

إلا أن بعــض الأصـــحاء يدركون أشياء ليس لها وجود في واقعهم المــادي الخارجــي.. يــرونها ويسمعونها ويشمونها ويتذوقونها.. في هذه الحالة يكفي أن يكون هناك وجود مادي لينتقل إليك من خلال حاسة واحدة علــى الأقل ثم تتحرك بقية الحواس تلقائياً فتضفي أشياء من عندها.. على ســبيل المــثال أنت ترى إنساناً ما حقيقة فإذا بك تشم رائحة طيبة تجتاح المكــان بمجــرد ظهور هذا الشخص بالرغم من عدم وجود مصدر لهذه الــرائحة.. ولنا أن نتوقع في هذه الحالة أنك تحب هذا الإنسان الذي رأيته وأنــك تراه جميلاً في كل شيء وأنه يثير لديك بمجرد رؤيته كل المشاعر

الإيجابية أي الجميلة والطيبة وإذا بمشاعرك الإيجابية تتحول إلى مدركات حسية مصدرها قلبك وليس الواقع الخارجي.

ولـــذا فـــإنك ترى الإنسان الذي تحبه جميلاً في كل شيء.. وكأن الجمال كله اجتمع عنده.. وكأنه المثال المتكامل والرمز الأكمل.. وبذلك فهو يتحول إلى معنى.. إنه المعنى المطلق غير المحدود واللامتناهي.. ذلك هو الحب.. ولذا فمن يحب لا يسأم محبوبه وإن طال الالتصاق به.. بل يشتاق إلـــيه حتى في وجوده.. ويظل المحبوب متربعاً في عقل حبيبه محتلاً بؤره الوعي الأساسية فإذا كل شيء يدور حوله وإذا هو المصدر لكل جمال في الوجود.

وإذا غـــاب المحـــبوب عنك ثم ورد على الخاطر فإنك تشم واقعياً رائحـــته الجميلة ويرن في أذنك صوته الجميل وهو يتكلم أو يتغنى ويعبر أمـــام عينـــيك متمايلاً مختالاً كأجمل وجه خلقه الله وكأكمل جسد أبدع الله صـــنعه.. وإذا بمـــذاق رائع يجتاح فمك وجوفك ليس كمثله أي مذاق لأي طعـــام تحـــبه بـــل هو مذاق جديد مختلف يثير لديك أقصى درجات التلذذ الفمـــي.. ثـــم لا يســـتبعد أن تحس بيده تمسح عليك لا لإثارة غرائز وإنما لتمـــنحك الهـــدوء والســـكينة والسلامة وهي أحاسيس تفوق اللذة الجسدية بمـــراحل فـــتلك هـــي لذة الروح ولكن هذا لا يمنع أن تستثار لديك أيضاً أعصابك الحسية المنتشرة في الجلد من جراء ملامسة يد محبوبك.

هكذا يفعل بك لمجرد ورود خاطر محبوبك على ذهنك فإذا بك تراه رؤية حقيقية وتسمعه وتشمه وتتذوقه وتتحسسه كأنه موجود أمامك في تـ اللحظـــة أو كأنه ملتصق بك، ولكن الحقيقة أنه يكمن في داخلك أي تحول إلى معنى.

وعـــالم الإنســـان المادي يتحول في داخل ثنايا عقله إلى عالم من المعانـــي أي يـــتجرد مـــن ماديته ويعاد تشكيله على هيئة فكرة وشعور.. وحيـــنما تحـــب فـــإن حبيبك يتحول إلى كل المعاني الجميلة مجتمعة فهو الجمـــال والخـــير والســـلام والأمـــان.. وهـــو الأمانة والشرف والصدق والإخلاص والوفاء.. وإذا غاب عنك اشتقت إليه وفي هذه الحالة فإن معناه فـــي داخلـــك يتجســـد لحواسك كواقع مادي خارجي فتشمه وتتذوقه وتراه وتسمعه وتلمسه. ولا تستقيم حياة بين البشر إلا بالحب.. ولا يمكن للإنسان وجـــود على الأرض أصلاً إلا من خلال حب الله لهذا الإنسان.. وحب هذا الإنســـان لخالقه ومصدر وجوده.. الله هو مصدر الوجود.. ولقد أحب الله مَنْ خلَقه.. ولو لم يكن يحبه لما خلقه.. أحب الله الإنسان في الصورة التي خلقه عليها.. الإنسان هو محبوب الله.. إذن عملية الخلق ارتبطت بالحب.. لا خلـــق بـــدون حـــب، والحب هو الباعث على الخلق.. والخالق هو الله المحب المبدع المصور.

وبـــدون أن تدري فأنت تحب الله حباً جماً.. حباً يفوق كل الحدود.. فهـــو حـــب بـــلا حـــدود.. حـــب يمتد إلى ما هو أبعد من حدود الأرض والســـماء.. أنت تولد وفي قلبك حب الله.. وكلما كبرت عمق هذا الحب.. يتخذ معاني جديدة.. تقترب أكثر وترى أوضح وتشعر أعمق.. إن حبك لله حـــب يـــنمو.. يكبر.. يتعلق.. يعمق.. يتسع.. يزداد حجماً وثقلاً.. ويكون هـــو.. أي حب الله .. مركز توازنك واتزانك وثباتك.. لأنه في الأصل هو مصدر وجودك.

إذن مصدر وجودك هو حب الله لك واستمرار حياتك بسبب حبك لله.. وكلما نضجت ازداد شوقك للقاء الله.. وهو شوق يفوق شوقك لزيارة الجنة

والإقامة بها.. والحنين هو نوع من العذاب الرقيق.. العذب المحبب للنفس.. وهو محبب للنفس لأنه يعبر عن مشاعرك لمحبوبك.. إنك مازلت تحبه.. إنه مازال محور حياتك.. ولهذا يستعذب الإنسان عذاب الحنين لأنه دليل حب.. دلـيل أن الحب مازال حياً ومازال محور حياتك.. ومازال قوياً لأن الحب هو مصدر حياة الإنسان.. والإنسان يريد أن يستمر حياً.

والحنيـن إلى الله حنين طاغ نابع من تشوق للرؤية.. رؤية الجمال المطلـق والنور المطلق والرحمة المطلقة والقوة المطلقة والحكمة المطلقة والسلام المطلق..

هـذا هـو الله الـذي تهفو إليه القلوب حنيناً وشوقاً.. ولأن الأمر مسـتحيل طالمـا ظل الإنسان حياً على وجه الأرض فإن الإنسان المحب العاشـق الولهان يستحضر الله في عقله وفي قلبه.. هذا الاستحضار يغمر الـنفس بشـعور غامر من النشوة كما أنه يسبغ على الحواس القدرة على معايشة واقع مادي معين يرى فيه الجنة.. فأهل الجنة هم المقربون إلى الله والمرشحون لنيل حظوة التمتع برؤيته.

ولـذا فـإنك تستطيع أن تشم رائحة الجنة وأنت ساجد أو راكع أو وأنت صائم أو وأنت تطوف حول البيت العتيق أو وأنت تتصدق وتتزكى أو وأنت تذكر الله وتقر بوحدانيته وتصلي على رسوله.

وإجمالاً للقول بعد تفصيله فإنك تستطيع أن تشم رائحة الجنة وأنت تفعـل أي خير أو وأنت تمتثل لأوامر الله.. وكلما محيت عنك سيئة بحسنة تفعلهـا فإنك تتمكن أكثر من استنشاق عبير الجنة والتمتع برائحتها.. تأمل نفسـك وراقب أحاسيسك مثلاً وأنت تصلح ذات البين أو تستر عيباً لمؤمن أو وأنت تعفو وتتسامح أو وأنت تبر والديك أو وأنت تصل رحمك أو وأنت

تقضي حاجة لإنسان.. في كل هذه الأحوال سوف تجد نفسك وأنت تستمتع برائحة الجنة.

ومـــن الســـهل أن تتعرف على رائحة الجنة ولكن من الصعب أن تصفها لغيرك.. والروائح بالذات لا يمكن وصفها. فأنت تستطيع أن تصف منظراً أو أن تحدد لوناً أو أن تشبه صوتاً بأصوات أخرى في الطبيعة لكنك مـــن الصـــعب أن تصف رائحة.. ولذا اخترع الإنسان أسماء للروائح التي يصنعها وهي إما أسماء مواد طبيعية في الحياة كرائحة الزهور مثلاً ولكن الأعـــم الأغلـــب هو أن يختار الإنسان معنى ما كاسم لرائحة ما وكأن هذه الرائحة توحي بهذا المعنى.

واعـــتماداً علـــى هـــذا المنطق فإن رائحة الجنة هي رائحة الحب وليســـت رائحـــة مواد طبيعية.. إن حاسة الشم التي تتعرف على الروائح الطبيعـــية والمصـــنعة في الحياة الدنيا.. ورغم أن رائحة الجنة هي معنى وهـــي حالـــة وجدانـــية إلا أنك تشمها فعلاً من خلال حاسة الشم.. أي أن المعـــنى يتجســـد فـــي صوره عضويةٍ مادية.. إنها حالة من النشوة واللذة والســـرور والتي لا تتحقق إلا في ظل جمال أخاذ.. بل هو جمال مطلق.. وهي حالة لا يمكن أن تتحقق إلا بالتأمل العميق في الذات الإلهية.

وصـــديقة الـــورد فـــي الحياة الدنيا ينبعث منها خليط من أريج كل الأزهار والورود.. إنه مزيج غريب لا يتحقق إلا للعاشق ولا يحركه لدى العاشق إلا حين يرى حبيبه أو يستجمعه في ذاكرته.. وهذا قدر ضئيل من رائحـــة الجنة.. ومن نعم الله على الإنسان أن أتاح له أن يشم رائحة الجنة وهو على الأرض.. ولكن الفرح الأكبر هو حين يتاح لك أن تدخل حدائق الجنة.



سقوط رجل

أنا امرأة لا أقف أمام المرآة طويلا ولا أتزين إلا قليلاً وأرى نفسي جميلة الجميلات حسب تأكيدات زوجي لي وأنا أصدقه تماماً.. ورغم وصولي إلى الخمسين فإنني شديدة الحيوية.. أشع نشاطاً وتتدفق طاقتي، فتملأ الدنيا صخباً يسعد من حولي.. أنا أرى نفسي بعيوني الداخلية وبعيون زوجي ولذا أنعم بالثقة والهدوء، وأنام بعمق وأصحو مبتهجة وأعشق الحياة.

وتعجب مني النساء إذ لا أخفي عمري الحقيقي بل أعلنت ارتياحي حين انقطع الطمث حتى أرتاح من عذابات جسدية تتكرر كل شهر.. ولكن يبدو أنني كنت مفرطة في التفاؤل وغير محقة في ثقتي بزوجي.

والألم الحقيقي في هذه الحياة مصدره دائماً إنسان آخر.. أنا لا أتألم من أي مشكلة مهما عظمت، ولكني أتألم بشدة حين يحاول إنسان آخر أن يجرحني.. والجرح في حد ذاته ليس مهماً بقدر أهمية اليد التي تسببت في الجرح وأيضاً الدوافع التي أدت إليه.. والألم النفسي غير الألم العضوي.. الألم العضوي ينحصر في مكان معين أما الألم النفسي فيجتاح الإنسان كله.. عقله ووجدانه.. الألم النفسي هو التعاسة.. هو الحزن العميق.. هو اليأس.. هو الإشفاق على النفس.. الألم العضوي يجعلك متلهفاً للدواء للخلاص من

الألم لتستمتع بالحياة، أما الألم النفسي فهو انطفاء الحياة ذاتها وعدم الرغبة فيها والعزوف عنها وربما تمني الخلاص منها.

زوجي جرحني وأدمى نفسي..

والجـرح عميق تسـرب منه السم إلى كل أنحاء الجسد فارتفعت حرارتي وارتجفت وتقيأت وامتنعت لا إرادياً عن الطعام، وانخفض وزني فصرت كالشبح ولم أقو على مغادرة الفراش.. وطال المرض..وكنت أبكي ولا أتكلم..

وتحير الطب، وتلقيت علاجاً نفسياً.. أقراصاً ضد الاكتئاب، وتماثل الجسد للشفاء، لكن الحزن لم يبرحني، التعاسة لم تتركني وكنت كالمذهولة لا أركـز في شيء.. ولا أحتفظ في ذاكرتي بمعلومة أو موقف.. وشعرت في النهاية بأنني عالة على الحياة لا فائدة مني ولا أستحق الحياة.

ولم أفصح، فشل الجميع في أن يعرفوا سري.. فأنا بطبعي لا أحب الحديث عن مشاكلي.. أنا لا أشكو أبداً.. أتحمل وحدي العبء حتى الطبيب ذاته لم أصارحه حتى لا أشوه سمعة زوجي.

أقام زوجي علاقة غير شرعية مع امرأة أخرى.. وردود فعل أي زوجـة فـي هـذه الحالة تختلف.. قد تثور زوجة وتهدد وتتوعد وتشعل الحرائق في البيت، حتى يقلع الزوج ويتوب عن زلته، ويعود نادماً وتغفر الزوجة وتنسى..

وقـد تطلـب زوجـة أخرى الطلاق.. وقد تنتقم زوجة أخرى بأن تصـادق هـي الأخـرى رجلاً آخر.. وهناك زوجة ترضى بالأمر الواقع وتسـتمر فـي الحياة إما عن حكمة يوحي بها عقلها بأن هذه نزوة عابرة

ومراهقة متأخرة سرعان ما يبرأ منها الزوج ويعود إلى سابق إخلاصه، وإما عــن استسلام لحاجتها للاستمرار أو لما يوفره لها هذا الزوج من مال أو ســلطان بمــا يجعلهــا تتغاضــى عن أخطائه وبخاصة المتعلقة بعلاقاته المحرمة.

الأمــر بالنسبة لي كان مختلفاً تماماً.. استجمعت واستحضرت في ذهنــي كل المبررات التي من الممكن أن تدفع برجل إلى معرفة أخرى.. وابــتدأت بفكرة كانت قد علقت بذهني وقتها من حكم أمي ولكني كنت قد نســيتها، وهــي أن الرجل تعددي بطبعه يجذبه الهوى إلى أكثر من امرأة علــى خلاف المرأة فهي أحادية لا تستطيع أن تعرف إلا رجلاً واحداً، في آن واحد، وتفضل أن تعرف نفس الرجل طوال حياتها.

وبــناء على نصيحة أمي فإن الزوجة العاقلة هي التي تغفر لزوجها استناداً إلى تكوينه النفسي البيولوجي الذي خلقه الله عليه.

ومازال عقلي يوحي إلى باجتهاداته الحكيمة فيلقي باللوم عليّ إذ من الجائــز أنني أهملت هذا الرجل و ركزت على عملي وعلى الاهتمام بحياة أولادي.. وفــي هذه الحالة يجب أن أعاود الاهتمام بزوجي لأستعيده لأني تعلمــت مــن أمــي أيضــاً أن الرجل كالطفل يحب الاهتمام والتدليل وإلا انصرف إلى من تحقق له مستوى أعلى من اللذة.

ثم حادثني عقلي بشيء كنت قد قرأته وهو أن الرجل بعد الخمسين تهــتز ثقــته بنفســه نظراً لتراجع قدراته، فيحب أن يؤكد لنفسه أنه مازال مرغوباً ومطلوباً، فيدخل في مغامرة كالمراهق سيخرج منها خاسراً بالقطع فيعود مضطراً إلى سابق إخلاصه.

كانــت هذه الأفكار التي استعدتها في ذهني تصلح مبررات معقولة لــرجل خــان زوجته.. وكنت على استعداد لأن أقبل أحدهما فأعالج الأمر بهدوء حتى أستعيد زوجي، أحمي بيتي وأصون مستقبل أبنائي.

إلا أن الأمر بالنسبة لي كان مختلفاً إذ أن المرأة التي عرفها زوجي كانت في العشرين من عمرها وكان هو قد تعدى الخمسين بثلاثة أعوام.

وقــد يقــول قــائل مــا الفرق بين امرأة في العشرين وأخرى في الخمسين.. فالخيانة واحدة في كلتا الحالتين.. وقد يقول آخر إن غيرتي من الفتاة الصغيرة هي التي جعلتني أنهار إلى هذا الحد.

والحقيقة أن الأمر عندي كان له مغزى مختلف تماماً عن أي معنى من الممكن أن يعتري عقل أي إنسان رجلاً كان أم امرأة.

الجرح عندي لم يكن بسبب أن زوجي على علاقة بامرأة أخرى، لكن لأن زوجي عرف فتاة صغيرة.. وألمي ليس بسبب غيرتي لصغر سن هذه الفــتاة لكــن لأن زوجــي الذي أحبه وأحترمه قد تدنى إلى هذا المستوى الغريــزي الحيواني.. فليس هذا هو زوجي الذي عرفته على مدى ثلاثين عامــاً.. لم نكن نمارس جنساً بل كنا نمارس حباً.. كانت روحه هي التي تســبق في العناق قبل أن تتلاصق الأجساد.. كانت الرومانسية هي خلقه.. والرومانســية حيــن تصـــبح خلقاً فمعناها السمو.. الارتفاع.. التحليق في الســماء.. الإخلاص عن رضا.. الوفاء عن طباع أصلية.. وكل ذي خلق هــو رومانســـي وكــل رومانسـي يكون على خلق عظيم.. كان زوجي رومانســياً.. كــان زوجي خلوقاً.. كان رقيقاً مرهفاً شاعرياً ودوداً رحيماً عــف اللســان.. ولــم أشــعر في لحظة أثناء ممارستنا للجنس أنه نهم أو متوحش، وإنما كان تركيزنا يدور حول مشاعرنا وسعادتنا بأننا معاً.

ومعـــنى أن يعرف زوجي فتاة صغيرة أنه تخلى عن رومانسيته.. أنـــه تدنى.. أنه سقط.. أن أخلاقه قد تبدلت.. وهذه هي مصيبتي.. أو هذا جانب من مصيبتي.

أمـــا الجانب الآخر من المصيبة فهو أن زوجي رجل مثقف.. يقرأ كثـــيراً.. يكتب كثيراً.. لا ينطق إلا عن منطق عميق الفكر.. بعيد النظر.. ثاقـــب الـــرأي.. مهيـــب بفكره.. مطلع بحكمته.. مستشار برأيه السديد.. محبوب بصفاء عقله انعكاساً لنقاء ضميره.

كـــيف إذن يســـتطيع هذا العملاق أن يتفاهم مع عقل بسيط لفتاة في العشرين؟ لماذا هبط من عليائه؟ لماذا حط من فكره؟ كيف يتحدث معها؟ ما لغـــة الحوار بينهما؟ كيف يستمتع بعقله معها ذلك الرجل الذي كانت متعته الأساسية هي العصف الذهني.

هذا يكون- مرة ثانية- معناه أنه أصبح بدائياً غريزياً شهوانياً.

أمـــا الجانب الثالث من المصيبة فهو أنه من المنطقي أن أكف عن حـــب هذا الرجل.. فهو ليس الرجل الذي أحببته وليس الرجل الذي عشت معه شبابي حتى وقفت على أعتاب الشيخوخة.

وهـــناك تكمن مأساتي الحقيقية مع نفسي وبسبب نفسي: ليس لأن زوجي عرف امرأة أخرى.. ولكن لأنه عرف امرأة صغيرة السن في عمر ابنتـــنا.. وهـــذا لم يدفعني للغيرة ولكن دفعني للتقزز لأن هذا معناه أن هذا الرجل قد فقد رومانسيته وخلقه وانحط فكره..

ولكن ولكن رغم ذلك مازلت أحبه، ولذا مرضت لأني لا أدري ماذا أفعل.

أقبل الشتاء

همـس الشـتاء صـار لغـواً مسموعاً وإن لم يصبح بعد مدوياً، إرهاصاته أبانت عن نفسها فهطل المطر بجلاء في غير أوانه، وفي لحظة تكثفـت كـل ذكريات الشتاء في هجوم مفاجئ على الخاطر بعضها يبعث علـى الـدفء والبعض الآخر تتكسر منه الأسنان من شدة الاصطكاك .. بالفـرحى وبالحـزنى فـي آن واحد .. إنه الفصل الوحيد الذي أعاين فيه المشـاعر المختلطة، تباين غريب لا يقدر عليه أحد فالإنسان إما فرح وإما حزيـن، وأحياناً لا شيء، ولكن أن تجتمع لديه المتناقضات فهذا أمر فريد، وإن لم يكن شاذا، فالإنسان ذاته هو الغرابة بعينها.

انـدس فـي معطفه رغم أن هذا ليس أوان المعطف ولكن الزيارة المفاجئة للمطر أهاجت الذكريات وحركت الوجدان فأراد استدراج مشاعر بعينها بعد ركود سخيف أماته في الخريف، بقي أن يوقظ روحه، وياللعجب أن تتـيقظ روح فـي الشتاء، ياللعجب أن تزدهر حديقة الشتاء، إن ورود الشتاء عزيزة وخضرة الشتاء فقيرة، وألوان الشتاء باهتة إلا أن حديقته هو لا تتلون ولا يفوح أريجها إلا في الشتاء.

مشـى ملاصـقاً للبحر دون أن يأبه لابتلال قد يلحقه، تقبل المطر برأسـه عاريـة مـتعمداً، بل كان يرفع وجهه للسماء مستعطفاً المزيد من

المطـــر وكأن يدا حانية تمسح على وجنتيه، كان يستعذب ملامسة قطرات المـــاء النحـــيلة لشـــفتيه الغليظتيـــن متعمداً أن يترك بينهما انفراجة تسمح بانســـياب بعض القطرات إلى حلقة لتهيج أغشيته الداخلية، بالمغزى مرور المـــاء عبر تجويف حشوي، هكذا الشتاء كان لا يثير فقط وجدانه بل كان يثـــير أيضاً أحشاءه فالشتاء والدفء لا يأتي إلا من أنفاس إنسان آخر، أين أنـــت أيها الآخر؟ وكيف تطيب حياة بدونك؟ وكيف أنعم بشتاء من غيرك، ولا أملك إلا الذكريات ودفء الذكريات خيال محض يدفئ الروح ولا يدفئ الجســـد، ولـــذا ارتجّ داخل معطفه رغم أن البرد لم يكن شتاءً حقيقياً، متى يجيء الشتاء!!

ولماذا كل هذا الحب للشتاء ؟

لأني في الشتاء أكون إنساناً ..

وكيف تكون إنساناً وأنت إنسان فعلاً ؟

يكـــون الإنسان إنساناً حين يحتاج لإنسان آخر، الإنسانية هي اثنان فرداً واحداً، اثنان معاً يدفئ كل منهما الآخر، ولا يستلذ دفء إلا في الشتاء، اللذة هي بنت الشتاء.

وأطبقـــت ســـحابات بيضاء زادت من احتمال تزايد المطر فابتهج أكـــثر، وكلما استعاد برودة الشتاء في ذاكرته زاد إحساسه بالدفء ويا له من مزيج غريب، برودة ودفء في آن واحد، إحساس نادر لا تستشعره إلا في الشتاء، الأضداد معاً، أحدهما يجيء بالآخر، برودة تلد دفئاً.

تمادى في فرحه حتى وصل إلى النقطة التي بزغ فيها الحزن، من قلـــب الفرح، فكلما عمق الفرح لاحت تباشير الحزن، حزن يولد من بطن فرح.

ولماذا الحزن أيضاً؟

لأن القلـــب لا يحــتمل فرحاً بلا حدود، فالحزن يهدئ من عنفوان الفرح فأقوى على تحمله.

وكيف تحزن ودفؤك يأتي من أنفاس إنسان آخر؟

أحزن حين أتصور أني قد أفقده، فراق الحبيب في الشتاء هو فراق للحياة.

ولماذا تفارقه وهو بين يديك؟

هكذا الحياة، متقلبة كالفصول، لا تثبت على حال وفهم الحياة يجعلك لا تســـتغني عن الحزن، إنه يؤهلك للصدمات، يعدك للأهوال، يحميك من المفاجآت، يصونك من الانهيارات؟

ألا يؤلمك هذا الحزن؟

إن مـــزيج الفرح والحزن له مذاق خاص كعصير فواكه الجنة وقد صـــارت خمراً فجمعت بين حلاوة فائقة ومرارة محتملة ويصبح الشراب مستعذباً مستساغاً.

اســـتمر في مشيه محاذياً وملاصقاً للشاطئ في طريق قطعه مئات المـــرات، تعلـــق قلـــبه بأكثر من فتاة من عاشقات البحر، تبدأ القصة في الصـــيف ولكنها لا تعمق إلا في الشتاء، حتى جاء يوم وأحب بحق، وعند ذلـــك تذوق طعماً لكل فصل، فعرف أهمية الحب في الشتاء وأهمية الشتاء للحب.

وهلت سحابات داكنة من بعيد وامتزجت بالسحابات البيضاء المحلقة بعيداً فتشكل ما يشبه سقفاً كثيفاً يحجب السماء فشعر بالضيق وهكذا اكتملت

دوائر الفرح والحزن والدفء والبرودة تحت مظلة ذكريات حب جعل لكل حـياته معـنى، ومنحه القدرة على استشفاف الجمال في كل شيء يستثير حواسه.

وكانت السماء شحيحة فتوقف المطر، وأطلت شمس متشفية وزادت من حرارتها، فأصبح المعطف عبئاً عليه، ولا يدري كيف اختفت السحابات دون أن تجـود بمـاء فأدرك أنها سحابات خريف كاذبة، فأفاق من الوهم وتأكد أن الوقت لم يحن بعد لقدوم الشتاء.

وواجـه الواقـع بتجهمه هو الآخر، وعاودته المشاعر التي ليست فـرحاً وليست حزناً، وليس أسوأ من الأشياء المائعة، وشعر بالزهق فالجو لـيس بـرداً ولـيس حراً بل كان وسطاً، والأشياء الوسطى ليست براقة وليسـت ممـيزة، ولا تـترك أثراً في الذاكرة إن الوضوح في الاختلاف، والـتفرد في الشذوذ، والإثارة في الجنوح واللمعان في المغالاة والتميز في الـتمادي، ولـذا فالجـنون قد يكون مثيراً لأنه تحدٍ للمألوف وتمردٌ على القوالب واصطدام بالراسخ، فالجنون ثورة، والمجنون ثائر، ولا يهدر البحر إلا برياح عاتية، ومن يرتاد البحر عليه أن يتحمل العواقب، فقد يغرق، وقد يعـود بـاللؤلؤة الثمينة، ليهديها للأميرة ليزدان بها عنقها المرمري الذي يحمل رأساً تبارك الله في جمال وجهها.

تـأمل داخلـه ففهم لماذا استعجل قدوم الشتاء لقد كان يعيش وحيداً فـأراد أن يهـيج ذاكـرته لتجود عليه بصورة رفيق، ولما أعلنت الذاكرة العصـيان حيـث إن الفصـل ليس ملائماً قرر أن يتزوج وكانت هي في انـتظاره أمـلاً وشوقاً، فتزوجا هدأت النفس واستقرت الجوارح، وتعطر المكـان بأنفاس صادرة عن اثنين بدلاً من واحد في مزيج يبعث على إثارة

لا يطفـئها إلا تجاورهما في الفراش. ورغم أنه رواج أسس على حب إلا أن الحـياة انحدرت في اتجاه السكون والركود والكمون وانعكس ذلك على تـباعد المســافة بينهما في الفراش ثم استقلال كل واحد بحجرته ثم زحف الاســتقلال إلــى الاهتمامات والصحاب وحينئذ انقطع الكلام وساد صمت مريــب كصمت القبور وسكن الهواء فلم تعد ترى موجة واحدة على سطح بحر هائل.

عــاد إلى البحر بمفرده وقد أقبل الشتاء، إنها فرصة ليزحزح جبل الضــجر من فوق صدره، فلمح امرأة من ظهرها، أعجبه شعرها المنسدل إلى ما فوق خصرها، راقت له ملامح جسدها.

هزته طريقة مشيها، ضحك في نفسه فهذا بعض شذوذه إذ أن مشية المــرأة هي أشد ما يثيره، فهو يرى أن حركة الجسد أثناء المشي تعكس ما بــنفس الإنســان، إن التكوين النفسي وحركة الجسد أثناء المشي هما شيء واحد.

تتــبعها، ووجدهــا تقطع الطريق الذي اعتاد أن يمشي فيه، هجمت الســحب بشراسة، هطل مطر سخي. استحمت روحه فشعر بشبه بهجة، لم تغــب المرأة عن عينيه أحبها من ظهرها، حاول أن يتصور وجهها فخالها تشــبه المــرأة التي أحبها، استدارت فجأة، وكانت هي بعينها، المرأة التي يحــبها وقد سبقته إلى حيث اعتادا المشي معاً، قبلها بينما كانت مياه المطر تحاول أن تنفذ دون جدوى ما بين الشفاه المتلاصقة.

قوة الضعف .. وضعف القوة

ما من قوة إلا وتحمل في طياتها ضعفاً، وما من ضعف إلا ويحمل في طياته قوة، لا تغتر بالسطح، انظر في الثنايا، فإذا كان الظاهر قوياً فلعل باطـــنه ضعيف، وإذا كانت القشرة هشة فلعل الجوهر صلب، لا تخفْ قوياً ولا تستهن بضعيف، فمن يتعمد أن يرهبك بقوته فهو أحمق لا يعلم أن الله لا يحـــب كل مختال فخور وأن نملة ضعيفة من الممكن أن تخترق أحشاءه دون أن يملـــك لها دفعاً، أما من تظنه ضعيفاً فقد يمتلك من قوة العزم من نبع الحق ما يجعل ذراعه طويلة تنال من الظالم من حيث لا يدري، أليست الزهرة نحيلة وتملك من الأريج ما يهز الأبدان، وأليس الفجر رقيقاً ويملك مـــن التأثير ما يغسل النفوس ويزيل غلّ القلوب أليس الجبل قوياً ولا يملك أن يصـــد طفـــلاً يقذفه بالحجارة، وأليس البحر عربيداً ولا يملك أن يمنع سمكة من أن تودع فضلاتها في بطنه. فهكذا أي قوة غاشمة من الممكن أن تلقي فوق رأسها حجارة السجيل وأن تقذف في جوفها بالروث.

الأم.. قوة الوهن:

تحمله وهناً على وهن، ولكنها صابرة صامدة، ليس صبر الكارهين ولكن صبر العاشقين المتلهفين الحامدين الشاكرين، أن من الله عليهما بالنعمة ليحقق دورها وتتأكد جدواها وتعمر من حملها الأرض، يا له من ألم عظيم.

ويا له من اعتزاز أعظم وأجل، كيف لهذا الجسد الذي اختل نظامه وثقـل حملــه أن يتحمل كل هذا العناء؟ إذا أردت أن تعرف فاسأل الروح التــي تزهو وتشدو من فرط سعادة من نبع طمأنينة أنها ستصبح أماً، إنها تحمــل الســر الأعظم ما بين أحشائها، ونظنها غير قادرة من شدة الوهن، لكــنها تستمر وتصمد،، ويأتي الموعد، فتشتد الآلام، من عاينتها تقول إنها آلام فــوق طاقــة البشــر ولابد أن تصرخ، فإذا الصرخة مطعمة بالأمل، ويــتحقق الأمل حين تسمع بأذنها صرخة الوليد، فيرقص قلبها فرحاً ويتبدد الألــم ويذهب عنها الوهن، وتنهض متعافية لتبدأ مرحلة أخرى تحتاج إلى مزيد من الصبر والتحمل من أجل تقديم إنسان جديد للحياة، وكم تتمناه أن يكون صالحاً.

الجرثومة:

لا تــنجح عضــلات فظــة في أن تمنع جرثومة من أن تسكن بين شــرائحها فتلهــبها وتصــيبها بالعجز، فتجعلها لا تقوى على مقاومة طفل عضــلاته كالخيوط، إذا تبارزا ينتصر الطفل ويقع العملاق الوحشي على الأرض.

تجــتمع الجــرثومة والطفــل علــى قهر الأسطورة العضلية، إنها جرثومة لا ترى بالعين من شدة تناهيها في الصغر، وما أقسى المرض على الــنفس حين يصيب من يظن أنْ لا مرض يقوى عليه من فرط قوته، ولكن الجراثــيم النافذة لا رادع لها وإن بدت ضعيفة، إنها ضعيفة في حجمها ولا تملــك عضلات ولكنها تنفث السموم التي تهد الجبال، ياسبحان الله، خلقت لكــل قــوة ما يقهرها، لا تناهي في قوة، ولا إطلاق لقدرة، والله على كل شيء قدير.

هــو:

نحــيل إلــى حد الرثاء، نصف فارغ، ولكن قلبه يعمر بإيمان أمة بأكملهــا وعقله يحفل بفكر لدنيا مضمونة الحق والعدالة، ونفسه تئن بظلم الإنســان للإنسان، ودموعه لا تجف من حزنه على قهر الإنسان للإنسان، وأغــرب مــا في هذا الرجل دموعه، فمع كل قطرة دماء تنزف من جسد شــهيد تهطل دمعة من عينه، ما أكثر ما ذرف من الدموع لكثرة ما نزف من دماء. والأسطورة تحكي أن كل دمعة من دموع هذا الرجل تتحول إلى حيوان منوي يخترق باطن الأرض فتحمل وتلد بطلاً، ويصير الطفل البطل رجلاً في زمن قصير.

فالقهــر يختصر مراحل النمو، ويتزايد عدد الأبطال وكلهم في مثل فحولته ومحدودية قامته ولكنهم يملكون بأساً شديداً يصهر الحديد، ويقومون بالمعجــزة فيصهرون قلب القوة الظالمة مهانة وتحقيراً واستهزاء، ولا أحد يصــدق، ولكــن لا تعجب إنها القوة التي تنبت من قلب الضعف، إنها قوة الحق.

أمنا الغولة:

اجتمعــت لديهــا صفات الغولة والأفعى، فهي كالغولة في حجمها المــنفوش وكــالأفعى فــي سمها المنفوث تهدد وتتوعد وتنذر وتمنع وتجوع وتقتل وتحرق، وهي لا تقتل إلا الضعفاء ولا تحرث إلا الزرع ولا تبطش إلا بالمســتكين لتســيطر، ثم لتنهب وكانت تزهو بأنها الأضخم حجماً والأكثر طــولاً، فــلا أحد بقادر على أن يحوطها أو يطاولها، ومن الصعب اختراقها لأنها تسد عين الشمس.

ولكـــن كطـــير الأبابـــيل لا يعترض طريقها أحد وهي لا تمتثل إلا لأوامر ذلك الرجل النحيل، فإذا بها بغتة وعلى غير توقع تُسقط فوق الغولة حجارة من سجيل فتجعلها كعصف مأكول.

الأنثى:

ذلـــك الوجه الوضاء يستطيع بابتسامته الصافية أن يهزم أطناناً من الشر، يبدو ضعيفاً من تكوينه البسيط وملامحه غير الصارخة، ولكن نوراً ما يشع من بين مسامه ويفترش القلوب فينصهر الغيظ.. ويتبخر الحقد ويعم الهدوء وتنعم النفس بالسكينة ويسود الحب، تهز قلب رجل يعشقها، تطمئن قلـــب رجـــل فيـــتزوجها، ضعيفة في عليائها قوية في مودتها متمادية في رحمـــتها، تخفـــض له جناحها، وإن علت في سموها، تخضع له قلبها وإن ســـيطرت برقـــتها تطـــيعه وإن أثرته بفكرها، لا تأنف من تبعية هي في حقيقتها رفقة والتزام والتصاق وذوبان، فإذا هي متداخلة في صميم رجلها وليســـت خلفه بالمعنى المألوف للتبعية، يا لها من امرأة قوية، تستمد قوتها من ضعفها، وتلك هي الأنثى.

السيد:

له مهابة ليس مصدرها فحولة، وله وجود ليس مصدره زعيق، وله قبول ليس مصدره نقود، بأسه في حكمة عقله، وقوته في رقة قلبه، مضى زمان الفتونة، العقل هو الحاكم بأمره، والقلب هو الأمر المطاع، ولابد من قـــائد لكـــل ســـفينة، وهو القائد، ولا يصلح للسفينة قائدان، والقيادة ليست عضـــلات مـــتحفزة ولساناً يتدنى إنما القيادة هي روح رحبة تظلل الجميع فتدفئ وتنعش وتقنع، القيادة هي لغة العقل ولغة القلب معاً، هي لغة المودة والرحمة في سفينة الحياة الزوجية.

تخضع المرأة لقوة عقل وليس لقوة عضلات، وتضعف المرأة لرقة قلب وليس لزمجرة لسان، والحكاية تقول إنه رجل حازم وهذا ليس معناه أنه صارم وإنما متزن فيعدل، والحكاية تقول إنه رجل جاد، وهذا ليس معناه التجهم وإنما بشوش فيحفز، والحكاية تقول إنه رجل حاسم، وهذا ليس معناه القسوة، وإنما الفطنة فينجز.

وكيف لرجل متزن وبشوش وفطن لا تخضع له امرأة، فمن قلب المودة والرحمة تولد قوة الرجل فيصبح سيداً، ولذا فالضعف الحقيقي هو قلة العقل، وخسة القلب، والقوة الحقيقية هي حكمة العقل ورحمة القلب.

رحل حازم

لكـل إنسان أسلوب في الحياة، أي طريقة السير في هذه الدنيا وفقاً لمفهومـه عـنها، والـناس قسمان، قسم يعيش بأسلوب قائم على الفوضى والتهاون والتفريط ويستمتع بما تجود به اللحظة من ملذات أغلبها حسي، لا يلـزم نفسـه بشيء، ولا يلزم الآخرين، وقسم آخر يأخذ الحياة بمأخذ الجد ويلزم نفسه ويلزم الآخرين الواقعين تحت سيطرته بأسلوب حياة قائم على مبادئ يؤمن بصحتها ويمليها عليه ضميره.

والإنسان لا يستطيع أن يلزم الآخرين بشيء إلا بقدر ما يلزم نفسه، وعـدم الـتفريط يسـمى حزماً، أي الإلزام الكامل، وهناك حازم يأخذ في اعتباره قدرات الآخرين وظروفهم فيتجاوز أحياناً إلى حدود، ويتسامح عن خطـأ، ويقـبل عـذراً، وهـناك حازم آخر لا يعترف بضعف ولا يسمح باسـتثناءات ولا يقـدر ظـروفاً ولا يتجاوز عن تهاون وإنما يتطلب دائماً الأداء الأمـثل وفـق منهج صارم وأسلوب متشدد ولا يأبه إذا اتهم أحياناً بالقسـوة أو التعنت، أي بلا قلب أو أنه بلا عقل لأن المنطق يحترم قدرات الـناس المتبايـنة ويقـبل ضعفهم ويدخل ظروفهم الطارئة في الحسابات النهائية.

منذ أن تزوجت هذه الفتاة المعتدلة الجمال وهي تعاني حزم زوجها الـذي فـاق كل حدود، فهي إنسانة بسيطة رغم عقلها الراجح عاشت في

بحـــبوحة هي وشقيقتها الوحيدة التي تفوقها جمالا مع أبوين يجيدان التعبير المفرط عن عواطفهما الجياشة تجاه ابنتيهما فأغرقتا حباً ودلالاً وحناناً فوق قاعدة رصينة من الأخلاق الحميدة والتمسك بالدين بلا إرهاق والتجاوز عن الأخطاء البسيطة التي لا تستطيع أي فتاة تجنبها عند سن معينة فلا يغضب الأب لضحكة عالية ولا تظهر الأم استياءها حين تبالغ إحداهما في زينتها بـــلا تجاوز مخل، ولا يشتعل الأب والأم معاً من الغيظ إذا انفردت إحدى بنتـــيهما بالتلـــيفون فـــي حديث غير مسموع عن تعمد ودون أن تجتاحهما الظنون.

لـــذا كانت الحياة سهلة دون توتر عضلي ودون تهيب نفسي ودون خـــوف مـــن الأخطاء الهينة ودون سياط تلهب الضمير ولذلك كانوا جميعاً يـــنامون بعمـــق ويجدون لذة في الحياة، والالتزام الوحيد المفروض بحزم نسبي هو التمسك بالقواعد الذهبية للأخلاق الحقيقية غير المطلية الواضحة لكـــل عين والمراقبة من كل ضمير كالصدق والأمانة والشرف والإخلاص والوفاء.

وفـــي هذه الأسرة السعيدة بالذات كان من الممكن للمتابع والمشاهد أن يتعرف على أهم قاعدة أخلاقية يرتكزون عليها وهي مصدر استقرارهم النفســـي وطمأنينـــتهم وسر نومهم العميق، هذه القاعدة كانت هي الأمانة، ليســـت أمانة القول والفعل فقط، وإنما- وهذا هو الأهم- أمانة التفكير، وقد تبدو أمانة التفكير تعبيراً جديداً، أو مفهوماً مستحدثاً إلا أننا لو أمعنا التأمل في ضمير جميع أفراد هذه الأسرة لاكتشفنا معنى أمانة التفكير وهي إلزام ذاتي عن قناعة وعن رضا بكل ما هو متفق عليه دينياً واجتماعياً على أنه معيار قيَمِيٌّ أي قاعدة أخلاقية ثابتة راسخة غير قابلة للحوار الذاتي أو النقد

أو التحلـيل أو المجادلـة وبالتالي غير قابلة للنقض أو التهاون النسبي في تطبيقها أو أي أعذار غير مقبولة حين التجاوز عنها.

وأهمـية أمانـة التفكير أنها ملزمة للإنسان بأمانة السلوك في أشد الأوقات حرجاً أو ضيقاً حين التعرض لضغوط مهما كانت قسوتها، وليس مسموحاً للإنسان في هذه الحالة أن يناقش الأمر مع نفسه، فهناك قواعد لا تخرق وهناك أساسيات لا تمس وهناك مبادئ لا يمكن التنازل عنها وهناك حدود لا يمكن تجاوزها، إن أمانة التفكير لا تقبل أي تنازل وتفرض سياجاً شديد الصلابة حول قيم معينة لا تهتز أبداً.

ومن القيم المهمة التي حظيت بأمانة التفكير لدى هاتين الفتاتين هي الالـتزام الكـامل بكل ما يفرضه الزوج من أسلوب للحياة، ما إن تتزوج الفتاة فإنها تقبل عن رضا شكلاً جديداً للحياة منبثقاً عن مفاهيم معينة يؤمن بهـا الـزوج وتفرض أسلوباً له طبيعة خاصة، ويكون هذا التقبل منها عن رضا دون تذكر أو تأفف أو اعتراض أو رفض أو تمرد حتى وإن ضايقها، حـتى وإن اختلف عن أسلوب للحياة مارسته في سابق عهدها قبل الزواج، المهـم فقط أن يكون هذا الأسلوب الجديد لا يتناقض مع ما فرضه الله من حدود وما يقبله مجتمعها من قيم وعادات.

وهـذه الأسـرة كمـا قلنا تتكون من أب وأم وفتاتين أحداهما فائقة الجمـال والأخرى أقل في جمالها بمقدار النصف إلا أنهما كانتا متطابقتين فـي الرسـوخ القيمـي والـذي حظيتا به من أسرتهما دون تعسف، ربما التعسف الوحيد كان في أمانة التفكير التي لا يمكن أن تمس أبداً.

كـان مـن الطبيعي أن يتم زواج الفتاة الجميلة أولاً ولحسن الحظ كانـت هـي الأكبر سنا، وخلت حياتها من أي مفاجآت أو منغصات لأن

زوجها كان صورة من والدها في أسلوب الحياة. أما الفتاة الثانية فقد تأخر زواجهـا نسـبياً بقدر تسبب في قليل من القلق لوالديها، وبدت لهفة الأب بـالذات فـي عدم تريثه في الاستفسار الجيد عن أحوال الرجل الذي تقدم أخـيراً لخطبـتها، كـل ما اطمأن له الأب أنه كان حسن السمعة ويُشهد له بـالأخلاق الحميدة والاستقامة، كان يكبرها بخمسة عشر عاماً، ولقد غض الأبـوان البصـر عن هذا الفرق الكبير في العمر وامتثلت الفتاة عن حب ورضا لأوامر الوالدين التي جاءت في صورة نصائح ودود وليست أوامر ملزمة.

ومنذ الليلة الأولى اكتشفت أن عليها أن تغير من أسلوب حياتها لأن هذا الزوج يختلف تماماً عن أبيها، والمقارنة مع الأب بالذات هي الأساس لأن الأب هـو نمـوذج رجولي للزوج، والابنة عاشت مع أب كان يشغل وظـيفة أخرى وهي أنه زوج لامرأة أخرى هي أمها، ولابنة إذا توحدت مع الأم أنـثوياً فإنهـا إمـا أن ترفض نموذج أبيها كزوج، إذا كانت أمها غير سـعيدة، وإما تقبله وتتمناه إذا عاشت أمها معه حياة سعيدة تحقق لها فيها الإشباع على كل المستويات.

ومـع فتاتنا كان نموذج الأب هو النموذج المثالي للرجل وللزوج في ضـميرها، ولهـذا تمنـت زوجاً مثله، ولكن منذ الليلة الأولى اكتشفت أن نموذج زوجها على النقيض تماماً من نموذج أبيها.

كـان الزوج حازماً إلى حد الصرامة، ملزماً إلى حد القسوة، تأخذ كل أمور الحياة مأخذ الجد في صغائر الأمور وكبائرها يحسب حساب كل شـيء ويزن كل أمر بميزان دقيق متبعاً نظاماً ثابتاً لكل شئون الحياة من نـوم ويقظـة وعمـل ومأكل وملبس وعلاقات، وإذا خرجت الأمور عن

مسـارها أبـدي اسـتياءه ورفضه وامتعاضه ونقده وتوبيخه بألفاظ قاسية ولكنها ليست جارحة أو مهينة.

ولم يكن يملك موهبة التعبير عن مشاعر الود أو ربما كان يرى أن ذلـك ليس ضرورياً أو أنه ترف لا ضرورة له وربما مفسد ولذا كان قليل الكـلام حيادي الوجه أميل إلى التجهم غير الملحوظ، حاد الصوت ذا هندام تقلـيدي مكتوم اللون عازفاً عن أي لهو، غير متابع لما يسرُ الناس عموماً وبـالأخص فتاة صغيرة مثل زوجته كالأغاني والأفلام، وحتى في علاقته الجنسـية بزوجته كان يلزم نفسه وبالتالي يلزمها بأسلوب معين غير مرح، وإن لـم يخـل مـن التقديم، كان يصر على ظلمه المكان ولا ينبس بكلمة ويحبس أنفاسه وكأنه يراقب نفسه أو يشعر بمراقبة آخرين له.

يعـود من عمله ويبقى في البيت حتى صباح اليوم التالي، ومحدود العلاقات، لا خروج إلا بتصريح يحدد فيه ساعة الخروج وساعة الرجوع، كـرمه مـن الممكن الاختلاف حوله فيقال إنه حريص أو بخيل في حدود تجعل من الصعب وصفه على الإطلاق بأنه بخيل، ولكنه لم يكن سخياً، كل شيء بحساب ومقدار، يكره النوافذ المفتوحة ولذا فالبيت محروم من الهواء الساري بين نافذتين مفتوحتين، لا يبدي غيرته في موقف يتعلق برجل آخر وإنمـا فـرض نظامـاً للـتعامل مـع الغرباء يقضي بأن يكون التعامل للضروريات وفي أضيق الحدود وبأقل الكلمات، ويدخل في تعريف الغرباء كـل أقاربهـا من الرجال، ولكن غيرته كانت لا ترقى أبداً إلى الشك ولم يـتفوه على الإطلاق بأي كلمة نابية من النوع الذي يتردد عادة في مواقف الشـك والغيرة الزائدة. والتزمت الزوجة وإن أصابها حزن فقد حرمت من الحياة ذات المذاق الرائع التي عاشتها في حضن أسرتها، ولم تشك لأسرتها

وإن لاحظـوا غمها، ولم تحسد أبداً شقيقتها التي عاشت حياة ربما ألذ من الحياة التي عاشتها سابقاً، وإنما رضيت وقبلت وإن لم تسعد.

إن الأمانـة الفكرية لا تفرض أولا تصر على السعادة وإنما تصر علـى الالـتزام، تصر على القبول حتى بدون فرحة، الفرحة ليست شرطاً أساسـياً لأمانـة الفكر، ولا يعتبر هذا تناقضاً ولا يؤدي ذلك إلى صراع، الصراع هو مشاجرة بين رغبتين متعارضتين.

هـذه السيدة لا تعاني صراعاً لأنها حين تيقنت من أن أسلوب حياة زوجهـا يختلف عن الذي تمنته فإن تمنياتها ماتت، أي أن رغبتها في حياة سـهلة مـريحة انعدمت، بل وطنت نفسها على قبول أسلوب حياة زوجها، لـيس عن صبر من المحتمل أن ينفذ وإنما عن قناعة كاملة بأن من واجب الـزوجة أن تقـبل وأن تلتزم ثم ترضى بأسلوب حياة زوجها، ولا تسمح لنفسها بأن تصبح ضحية لصراع بين رغبتين متعارضتين.

لكن هذا لا يفرض أن تكون سعيدة، إلا أن شيئاً داخلياً شديد العمق كـان يجعلهـا تشعر بالطمأنينة الشديدة، شيء ما أدركت أنه طيب في هذا الـرجل، إحساس بالوثوق، شيء غير مرئي وغير محسوس لأنه خفي في أعماقـه، ولهذا لم تحرم من النوم العميق، النوم العميق دليل سعادة أو دليل طمأنينة، ولهذا لم تشك أبداً.

وأظهـرت الأيام كالمعتاد وجهاً غير حسن بالمرة، مرضت الزوجة مرضـاً خطـيراً، النجاة منه لا تكون إلا بمعجزة، وهنا تغير هذا الرجل تمامـاً، مـن النقيض إلى النقيض، بقي على صمته وإن حملت عيناه كل مشاعر الحب الفياض وحمل وجهه الألم والجزع والقلق والخوف، ونصح الأطـباء بجراحة في الخارج لم يكن يملك تكلفتها إلا إذا باع كل ما يملك

مـــن ميراث أبيه، وفعل دون تردد، وطار بها، ومع الأزمة والغربة انهار، ولـــم يكـــن يـــنام إلا وهي في حضنه إلى أن منعه الأطباء من ذلك لحرج حالتها، لم يتوقف لسانه عن الدعاء وعن ترديد كلمة واحدة إنه يحبها، هزل تمامـــاً وعصره الاكتئاب وإن بدا متماسكاً ليمنحها القوة والأمل، وأجريت الجـــراحة ونجاها الله وعادت متعافية إلى الوطن، وانتهت الأزمة، وانتهت مـــبررات ضـــعفه وتغير أسلوبه، فهل يعود إلى سابق عهده أم يستمر في أســـلوبه الجديـــد القـــائم على الإغراق العاطفي والمودة الظاهرة والتعبير المباشر.

ولم يمهله القدر ليختار، إذ قال القدر كلمته النهائية التي لا يكون لها أحياناً أي مبررات أو مقدمات، مات الرجل، نعم مات الرجل بدون أسباب، نام فمات.



تنويعات صيفية

الصـــيف له رائحة خاصة يتفرد بها دون بقية الفصول، ففي النهار هـــي رائحة البحر، وفي المساء هي رائحة النسيم المحمل بالياسمين، وعند الفجر هي رائحة الندى الذي تمسح بكل ما هو مزهر ومخضر.

ورائحة الصيف تهب عليك من الداخل مثلما تأتيك من الخارج، فمن داخلـــك تفوح رائحة الاشتياق للحب يفرزها جلدك ممزوجة بالعرق فتلهب الأبدان التي تقفز إلى الماء فتزداد اشتعالاً، فنار الوجد لا يطفئها إلا رشفات من رحيق وردي يكفيك أن تلامسه شفتاك فيكتسب حمرة الدماء التي تغلي داخل عروقك.

وعلى الشاطئ تسود لغة العيون، وإذا كنت تجيدها لن ترى إلا كلمة أحـــبك، وهي أول كلمة تعلمتها كل عين، ولذا فهي تجيد ترديدها، والعين تفهم العين، فإذا تجاوبت عين مع عين يعني إذا جاوبتها بنفس الكلمة أحبك تـــنخلع القلوب التي في الصدور، وتتشكل ابتسامة على الوجه تكاد لا تبين خوفـــاً من عين حسود، فيمضيان بعيداً وينطق اللسان بأهلاً، وفي غمضة عيـــن تتشـــابك أصابع اليدين، يمشيان ويمشيان، لا يباليان بحرقة الشمس، يتمهلان، يغرسان الأقدام في الرمال، يسمحان بملامسة الماء إلى ما فوق الكعوب، ويتواعدان على المساء.

البراعم:

وفـــي ســاحة تعرف باسم ملتقى العشاق يتقابلان، تغطت الأجساد بـــأرق وأجمـــل الثـــياب إلا من أجزاء تركت عارية عن عمد لتكشف عن نضـــارة وتلهف، اثنان، ذكر وأنثى، وكأننا فوق سفينة نوح، يا سبحان الله الـــذي وضع المغزى والمعنى كله حين دعا إلى سفينة نوح، من كل صنف اثنين، ليسا ذكراً وذكراً، وليس أنثى وأنثى، وإنما ذكر وأنثى.

وتســـود المكـــان همهمات تعلو على صوت البحر القريب ويحملها الهواء فتبدو وكأنها مقطع من نشيد يردده كورس، إنها نفس الكلمات ونفس اللحن، إن للعشق لغة واحدة وكلمات محددة ولحناً واحداً، والهمس يصيح، وإن لـــم تستطع أذنك استراقة يكفي أن تنظر إلى عينيها، وهو يقترب من أذنها ويهمس، يكفي أن تنظر إلى وجهه وهو ينطق بكلمات غير مسموعة حـــتى لها، ولكن يكفي الاقتراب من أذنها، ستفهم هي ما يقوله لها، وتفهم أنت عن بعد محتوى همسه.

وماذا يمكن أن يقول لها إلا أحبك، أنت أجمل مخلوق على الأرض بل وفي السماء، بل وفي الكون، أقسم بذلك، وهو صادق في قسمه، العشاق لا يكذبون، القلوب البرعمية لا تعرف الكذب، وتتلكأ الشفتان بجوار الأذن وكأنـــه حديث طويل وهو ليس بحديث، وتزداد حرارة المكان رغم تلطف النسمات، ولا يكون هناك حل إلا أن تصدح الموسيقى حتى يكون الالتحام معلـــناً، تـــتراقص الـــزهور بمـــرح سكرى بالهوى وروائح المساء ذات المصادر المتعددة، ويختفي نصف الحاضرين.

لا أحـــد يعـــرف أين ذهبوا، لعلهم نزلوا إلى الماء يسبحون باللباس الملائم.

عشاق بصحيح:

وعلى مسافة أبعد من ملتقى العشاق وفي اتجاه الأطراف وبعيداً عن المركـــز حيث تخفت الأضواء فلا ترى إلا من كان على مائدتك إلا بالكاد جلســـوا اثنين اثنين، في الصيف وبعد رحيل النهار واقترابنا من الليل غير المســـموح بإضـــاءته إلا بوجه القمر غير مسموح بأن يزيد أي تجمع على اثنيـــن، ولابـــد أن يكونا ذكراً وأنثى، وأن يكونا عاشقين متلهفين، لا يصح عشق بدون تلهف.

الـــتلهف هـــو قـــوة الجذب التي تضني حين يكون الاقتراب غير مسموح به فتضطرب الأبدان ويتشتت الخاطر وتزيغ الأبصار باحثة عن فرصة للمسة سريعة أو قبلة خاطفة وهذا يوحي بالحداثة، حداثة العلاقة، ما أجمـــل القبلات المسروقة واللمسات التي تبدو وكأنها عفوية، فغير مسموح فـــي هذا الجزء من الدائرة بالسلوكيات البرعمية، هذا الجزء من مستعمرة الحـــب خصص لعشق الناضجين، حقاً إنهم ناضجون ولكن رائحة الصيف عـــند المســـاء تجعل العقول صغيرة من شدة السكر فلا نستطيع أن نجزم بحكمـــة التصـــرف، فالمتلهف معذور والمشتاق المحروم لابد أن نغفر له ذنـــبه، والأعمـــار تتباين إلا أنها لا تكشف عن حقيقتها بفعل الظلام ولأن عشـــق الناضـــجين يعـــيد خلق العاشقين من جديد، فيعود بقلب وليد وجسد مراهق وعقل حكيم، ما أروع أن يجتمع القلب البرعمي والجسد المتفرعن والعقل الناضج في إنسان واحد يهتف لمحبوبته بثقة أنا أحبك ويقول له بكل اليقين أنت أجمل إنسان في الوجود ويحلق معه إلى الأفق الأعلى بجناحين يجمعـــان مـــا بين القوة والحنان مطوفاً بهما في حدائق غناء يلفها السحر والأســـرار، فذلـــك شعر وتلك موسيقى وهذا غناء وهنا الألوان وفوق ذلك

المعـــنى والفهم العميق، ثم يعودان إلى حيث يجلسان فيفاجئها بلمسة يقلقها موقعها أو يميل ويدنو وكأن شفتاه اصطدمتا دون قصد بوجنتها القرمزية.

عشاق ولكن قدامى:

وعلـــى المستوى الثالث من الدائرة وبعيداً نسبياً عن ملتقى العشاق جلسوا ومعهم أطفالهم، والأطفال يصرخون مرحاً ويلعبون قفزاً وعيون كل أب وكـــل أم مثبـــتة على الفلذات ومن وقت لآخر تحين منهم التفاته ناحية الـــبحر، وتهـــب رائحة المساء مثيرة للذكريات، نفس المكان ولكن اختلف الـــزمان، ياه، يظل المكان هو المكان ويبلي الإنسان، لا يبقى أحد، الجماد أبقـــى، وســـيظل الـــبحر حتى ينشق القمر وتقع الواقعة، ومن كان برعماً بـــالأمس ثـــم نضج اليوم قد كبر، والأطفال يكبرون، وغداً الأحفاد يفدون، ولكـــنهم مازالوا اثنين اثنين، وحمل الهواء أغنية قديمة، ياه هي النظر في عينيها، عيناك في لون زرقة البحر، استسلمت، هبت رائحة البحر، والمساء والياســـمين، وثمـــة رائحة أخرى انبعثت من جسده وجسدها، فأحسا بقوة، نهضا، عادا إلى البيت، أناما الأطفال في غير موعدهم ليتفرغا للحب.

ما قبل الخروج من الدائرة:

في المستوى الرابع من الدائرة، وبعيداً نسبياً عن المركز وفي منأى مـــن البحر تحسباً من الهواء البارد الذي لم تعد تتحمله أعمارهما المتقدمة جلسا على أريكة بلا مسند للظهر، فظهر من الخلف تقوس ظهريهما، وضع يـــداً فوق يد وأمسك بالعصا التي توسطت ما بين رجليه وأخذ يدندن، بلحن عمره خمسون عاماً، ياه، سمعت هذا اللحن وكان عمري في العشرين.

طالعـــته بنظرة ذات معنى وقالت أما أنا فسمعته أول مرة وقت أن كـــان عمـــري الخامسة، توقف عن ترديد اللحن وقال لها ولماذا التزوير، فأشاحت بوجهها بعيداً عنه قائلة بل أنت المزور، أتظن نفسك صغيرا، فقال لها بتعمد بل أنت التي تتصابين فزغدته في جنبه فضحك حتى لا يغضب.

ومرت امرأة تضرب بالودع، نادت عليها، استغرب من أمرها، ماذا تريديـــن أن تعرفـــي يـــا مخرفة، أريد أن أعرف مستقبلي بعد أن أتركك، نظرت إليها العرافة، قالت لن تفترقا إلا بالموت، أخفت ابتساماتها، أما هو فقهقـــه، قامـــا للتمشية، استندت إلى ذراعه واستندهو إلى عصاه، عند البئر توقفا، سألها من أد ايه كنا هنا، تنهدت شدت على أصابعه أكثر، استمرا في المشـــي، وعـــند مـــنعطف مرت سيارة مسرعة بجنون، فزع فوقع، انخلع قلـــبها، لا ينخلع القلب إلا في هذه المواقف، الحمد لله ربنا ستر، عادا إلى البيـــت، ساعدته في خلع ملابسه، الساق توجعه، ورم بسيط، مسحت بيدها عليها بحنان، انتقلا إلى الفراش ورغم ساقه التي كانت تؤلمه مع كل حركة إلا أنهما قضيا ليلة ممتعة بقدر ما تسمح به الإمكانيات.

خارج الدائرة:

في المستوى الخامس وخارج حدود الدائرة احتار ماذا يفعل أيجلس أم يمشـــي أم يعـــود إلى البيت، فضل ألا يعود إلى البيت حيث لا أحد إلا الجـــدران وقـــد شبع من تأملها، أخذ يمشي ببطء، ابتعد كثيراً عن الشاطئ خشـــية أن تطيح به نسمة هواء شابة، وصل إلى مكان مقفر، انقبض، عاد أدراجـــه حيـــث الناس، ثم حيث الزحام ما أحلى الناس وما أجمل الزحام، الـــناس هـــم الجنة الناس هم الحياة، يموت من يعيش وحيداً، الوحدة كالسم

بطـــيء المفعـــول، يمـــوت الإنسان حبة حبة، ما جدوى أن تتكلم دون أن يســـمعك أحـــد، ما جدوى أن تتنفس دون أن يلتهم الهواء من أنفك أحد، ما جدوى الملبس، ما جدوى الطعام والشراب، مر بالبئر، سأل نفسه من أد أية كـــنا هنا، عجب من كلمة كنا.. أنت الآن وحيد، قل: كنت. ما أروع كلمة كنا أين هي الآن، لقد ذهبت، كنا معاً في هذا المكان من ستين عاماً.

المكـــان هو المكان، أما هي فغير موجودة، وأنا موجود اليوم فقط، دمعت العيون، ما جدوى الدموع وما جدوى الحزن، حزن لا شاهد عليه لا قيمة له، حتى الحزن يحتاج إلى شريك، إلى شاهد، جلس على أريكة يجلس عليها اثنان، شاب وفتاة، تمني أن يتحدثا معه، كانا مشغولين بحوار هامس كانـــا متلاصقين بشدة، في زمانه لم يكن هذا مسموحاً، أفضى إليها الشاب بشـــيء في أذنها فضحكت بصوت عال، ضحكة أنثوية بل شديدة الأنوثة، ترى ماذا قال لها في أذنها، لاشك أنه يدعوها لشيء ومضى الشاب والفتاة دون أن ينتبها لوجوده.

مـــرت بـــه فتاة صغيرة تبيع شيئاً، استوقفها، أغراها بالشراء، أخذ يـــتحدث إلـــيها، أســـئلة لا معـــنى لها، ضجرت الفتاة من التعطل، تركته ومضـــت، اشتد الهواء فقرر العودة، السيارات العابرة تكاد تطير، مستحيل أن يعبر الطريق بمفرده، تقدم منه رجل وعبر به، أراد أن يشكره ولكنه لم يمهله، صعد إلى بيته، أراد أن يأكل شيئاً فتكاسل، أراد أن يشاهد فيلماً في التليفزيون فتكاسل، وحين أراد أن ينام شعر أيضاً بعدم الرغبة.

القبلة

فجـــأة شـــاهد الحدث.. استغرق تطلعه ثانيتين أو ثلاثاً على الأكثر وأطـــرق بعدها ناظراً إلى حيث موقع قدميه.. وهم بأن يترك المكان ولكن قدمـــيه لم تطاوعاه.. ولكن عينيه تحركتا ضد إرادته صوب الحدث فلم ير شـــيئاً.. فظـــن بنفسه الظنون، ولكنه هدأ واطمأن.. عاود النظر في اتجاه آخـــر.. وفجـــأة وقع حدث مطابق تماماً.. هكذا وبدون مقدمات.. ما جدوى المقدمـــات لحدث كهذا.. مهما كانت المقدمات ما استطاعت أن توحي بأن مـــثل هـــذا الحدث سيقع.. هذا الحدث لا يمكن أن يقع فجأة.. تماماً مثلما تـــنفجر قنـــبلة.. هذا الانفجار لا تسبقه أي مقدمات.. وأحياناً يموت إنسان فجـــأة وأيضـــا بـــدون مقدمات.. ربما هو سائر في الطريق أو هو يتناول طعامـــا أو حتى وهو نائم.. وما ضرورة أن يكون للموت مقدمات!! إلا أن انفجار قنبلة ينزع القلوب من مواضعها.

والموت المفاجئ يغرق النفس جزعا وإشفاقاً.. أما الحدث الذي رآه فقد أوقف عقله تماماً أو كاد يكون بلا عقل.. في هذه المرة الثانية لم يُطرق وإنما أمعن النظر.. وتأكد من استمرارية الحدث.. وشهق.. وكاد يصرخ.. وما جدوى الصراخ وصخب الطريق يعلو على أي صوت.. ومن سيلتفت إلـــى صراخه والناس معظمهم قد رأوا الحدث ولم يتوقفوا عنده بل مضى كـــل لحـــال سبيله وكأن شيئا لم يقع.. ولكنه قرر أن يخرج أي صوت من

حنجرته ليثبت أنه لا يحلم.. في الأحلام لا يستطيع الإنسان أن يصرخ وهو خـائف.. تصـاب إرادة الإنسـان بالشـلل وهو يحاول أن يفر من خطر يلاحقـه.. ويتيقظ الإنسان عند هذه اللحظة.. ويستمر خوفه لثوان ثم يشعر بالارتياح حين يتأكد أنه كان يحلم.

وأمـام هـذا الحدث المفاجئ لم يستطع أن يصرخ ولم يستطع أن يتحرك تجاهه لمزيد من التأكيد.

ولمـاذا يـتأكد وقد سبقه حدث مشابه منذ دقيقة واحدة.. في المرة الأولـى لـم يصدق نفسه بل ظن بعقله آفة حيث وقع الحدث فجأة وانتهى فجأة.. ولكن نفس الحدث يقع أمامه الآن وبنفس الطريقة المفاجئة بدون أي مقدمات.. ولكنه استمر.. ثانية.. ثانيتين.. خمس ثوان يا للمصيبة.. ثلاثون ثانية بالتمام والكمال.. ثلاثون ثانية تكفي أي إنسان للتأكد من مدى ملامسته للواقـع.. ولكن ما أقلقه عدم قدرته على إخراج صوت.. أي صوت حتى ولو كان كحة مصطنعة كالتي يصدرها الناس في قريته وهم يهمون بدخول مكـان غريـب لينبهوا أصحابه إلى قدومهم ثم يعقبوها بكلمة "يا ساتر".. والقصـد من ساتر هي ستر ما يود أهل الدار ستره من أحوالهم وشئونهم الخاصة وما يودون ألا يراه أو يطلع عليه الضيف القادم.. هكذا الأصول.. هكـذا الواجـب.. هكذا الأخلاق.. ولكن ما يحدث أمامه الآن إنما يقع في الهواء الطلق وتحت السماء مباشرة.. وعلى قارعة الطريق وألف أو يزيد مـن المـارة يعبرون.. فما جدوى الكحة أو يا ساتر.. ما جدوى الأصول والواجب.. أي أصول وأي واجب يجديان مع هذا الموقف.. أي شيء سيتم سـتره.. لكنه استطاع في النهاية وبعد جهد أن يتمتم بكلمة يا ساتر.. قالها مـن قلـبه.. التجأ بها إلى الله فهو الستار حينما لا يريد الإنسان أن يستر

نفســه.. هو الستار حين لا يفضح الإنسان بل يغطي فعلته التي لو عرفت لأســاءت إليه.. وكم من عيوب سترها الله.. وكم من أفعال مخزية حجبها الله عن عيون الآخرين.. وخطر له خاطر أراحه.. هدأ بعضاً من رَوْعه.. ألا يحــتمل أنهم يصورون لقطة سينمائية في هذه اللحظة.. نعم.. نعم.. إنه مجرد تمثيل.. لا يمكن أن يكون حقيقة.

الحمــد لله إنــه ليس حقيقة فالحقيقة تجعل الإنسان يفقد عقله وهو يحــتاج إلــى هذا العقل سليماً ليستكمل دراسته.. وتقدم خطوات.. وتلفت حوالــيه فلــم يجد كاميرات وأعاد النظر صوب الحدث وبطليه فإذ هما قد انصـــرفا. لم يستطع أبداً أن يلم نفسه وفشل تماماً في أن يستعيد هدوءه.. واستمر في وقته مستنداً إلى الحائط وفي نفس الموقع الذي رأى منه الحدث الأول والحدث الثاني.

كان هذا الشاب الذي هو دون الخامسة والعشرين قد وصل لتوه من بلدتــه التي تقع في أقصى الجنوب.. كانت بيده حقيبة واحدة ولكنها كانت مــن الضخامة والثقل بما لا يسمح له بحملها سائراً أكثر من دقيقة.. فكان يتوقف عن السير من حين مستنداً بظهره إلى الحائط ومراقباً المارة..

لــم ينهكه السفر بالطائرة على مدى خمس ساعات متواصلة سبقتها ليلة من الأرق والاستعداد بقدر ما أنهكه الفزع خشية ألا يعثر على عنوان الحجرة التي سيسكنها في هذه العاصمة الأجنبية التي يجيئها حاملاً في قلبه أمــلاً مدعماً بطموح ظل يدخره على مدى سنوات عمره ليصير باحثاً في العلــوم الطبيعية. وبينما هو في إحدى وقفاته للراحة شاهد الحدث الأول: شاب وفتاة يستغرقان في قبلة بينما هما واقفان على الرصيف المقابل.. ثم تــلاه الحدث الثاني بينما يهم بالتحرك من مكانه.. ولكنه لم يتحرك.. ظل

بمكانـــه لـــيس انـــتظاراً لحدث ثالث مشابه وإنما لأنه فقد السيطرة تماماً.. تصبب عرقه في هذا البلد البارد..

نظـــر إلى السماء فخنقه الضباب الكثيف.. هجم المساء بينما النهار لـــم ينتصف إلا منذ ساعات قليلة.. شعر بأنه مسجون.. وداهمته رغبة في الـــبكاء ولكنه لم يفعل أو أنه لم يستطع.. وسيطرت عليه رغبات اندفاعية غريـــبة كأن يتجرد من ملابسه تماماً.. ولم ينزعج من الفكرة.. وما الفرق بيـــن التجرد من الملابس وتبادل قبلة بين رجل وامرأة.. الحالتان نوع من التعري.. وربما لن يلتفت إليه أحد وهو يمشي عارياً وربما بعد قليل يطالع رجلاً أو امرأة بدون ملابس.. وتذكر أنه سمع شيئاً عن مستعمرات العراة.

ولـــم يستطع أن يخفي نظراته الزائغة عن رجل الشرطة الذي توقع أن يكـــون فـــي أزمة فتقدم منه باسماً عارضاً المساعدة.. ودله إلى حيث يســـكن ونـــام يومين متواصلين ربما هروباً من مواجهة الشوارع.. وكان عليه أن يخرج لأسباب متعددة.. وانتظم في دراسته إلا أن الرغبة في النوم المستمر لم تفارقه منذ تعرضه للحدث الجلل رغم أنه شاهده بعد ذلك مئات المرات.. اثنان يتبادلان القبلات في الطريق العام دون أن يلتفت إليهما أحد ودون أن يعترضـــهما الشرطي.. ما هذه البلاد العجيبة.. سأل نفسه.. وقرر أن يـــدرس الأمـــر بعناية.. ورأى أن دراسته أحوال البشر أهم من دراسة العلوم الطبيعية.

خصص ساعة من وقته لمتابعة القبلات.. واكتشف أن أفضل مكان لهـــذه الدراسة هو الحدائق العامة.. يجلس ممسكاً بكتاب يتظاهر بقراءته.. ويخـــتلس الـــنظر إلى العابرين ويدخل الحديقة شاب وفتاة.. يمران بجانبه دون أن يـــرياه.. ربما يجلسان على مقربة منه.. يستندان معاً إلى شجرة..

فـــي الغالب يفضلان الجلوس على الأرض.. يطوقها بذراعه.. يتكلمان.. يضحكان.. يستمر ذلك بعض الوقت.. يشربان شيئاً أو يأكلان.. تطوقه هي هـــذه المرة بذراعها.. ثم تجذبه إليها.. يطالعها بعينين باسمتين.. ثم تتحول البسمة إلى وله.. وتطبق هي على شفتيه.. لا يوجد عنف.. ولا جنون زائد ولكـــن كأنهمـــا يتصافحان.. بعض القبلات تستمر ثواني.. وبعضها يطول قلـــيلاً.. ويعـــرق هـــو.. وينتفض.. وتتسارع أنفاسه.. ولكنْ أي من هذه العلامـــات لا تبدو على الشاب أو الفتاة.. ثم ينتهيان من القبلات.. يعاودان الحديث.. ثم ينصرفان ويستغرق هو وقتاً ليعود إلى حالته الطبيعية.. وفي أحيان أخرى يذهب إلى محطات المترو تحت الأرض.. آلاف من البشر.. زحـــام. الوضع هنا مختلف حيث يتلاصقان ويمعن هو النظر بحثاً عن أي حركة.. ولكن ياللعجب التركيز يكون على الشفاه.. قبلات وقبلات.. بنفس الطـــريقة.. وكأنمـــا يتصافحان.. في بعض الأحيان تطول القبلة أكثر مما ينبغـــي.. يبدو عليهما التأثر.. يتناجيان.. أما الجسدان المتلاصقان فلا يبدو علـــيهما أي شيء غير طبيعي.. بينما هو يكون في حالة غير طبيعية.. ثم يصـــعد إلى إحدى عربات المترو.. يجلس أمامه رجل وامرأة في منتصف العمـــر.. ربمـــا تعديـــا الأربعيـــن.. يبدو أنهما زوج وزوجة إذ توجد في حوزتهمـــا أكـــياس ربمـــا تمتلـــئ بالطعام.. تنظر إليه بحنان.. يهمسان.. يتبادلان قبلة سريعة.. ويندهش..

مـــا فـــائدة هـــذه القبلة السريعة.. وأحياناً تطول القبلة عدة ثوان.. وتنتهي بأن يمسك بيدها ويحملقان للأمام.. ثم تخرج هي كتاباً وتقرأ فيه.. ويـــتذكر أمـــه وأباه.. ربما في نفس عمر الرجل والمرأة.. اللذين يجلسان أمامـــه.. لـــم ير أباه يقبل أمه على الإطلاق.. يا للكارثة وكيف يمكن أن

يحـــدث هذا هو ذاته لم ير من أمه إلا وجهها بينما رأسها مغطى دائماً ولا يخـــرج من جلبابها إلا أصابعها.. بل ربما لم ير أمه على الإطلاق تبتسم لأبيه ابتسامة ذات معنى. وتدريجياً اختفت عنده هذه الظواهر الفسيولوجية التي كانت تنتابه وهو يتابع القبلات.. اصبح محايداً من الناحية البيولوجية فقلـــت متاعبه وأتاح له ذلك مزيداً من التأمل والدراسة.. ماذا يجدي دراسة خواص المواد ونحن لم نفهم بعد خواص الإنسان.. من قال إن الإنسان هو الإنســـان.. بل هناك ألف إنسان.. الإنسان غير الإنسان.. أمي مثلاً مختلفة عن كل نساء الأرض.. وشقيقتي مختلفة عن كل بنات الأرض.. فالأرض غير الأرض.. والمناخ غير المناخ.. والمعايش غير المعايش.

اســـتغرقت القـــبلات أكـــثر وأكـــثر.. وقام بتصنيفها.. مرة حسب الأعمار التي كانت تتراوح ما بين الخامسة عشرة.. أو أقل قليلاً والسبعين أو أزيـــد قلـــيلاً.. لم يصنفها حسب المدة فبعضها يستغرق عدة ثوان..لكن أقصاها كان دقيقة واحدة.. في إحدى المرات النادرة طالت القبلة إلى ثلاث دقـــائق تصـــور بعدها.. أن كارثة ستحدث لكن الكارثة لم تحدث وانتهت القـــبلة مـــثل أي قـــبلة أخرى.. ثم يصنفها حسب المكان فبعضها يقع في عرض الطريق وبعضها في محطات المترو تحت الأرض وبعضها يتم في الحدائـــق العامـــة. ولكن الشيء الذي تعجب له أنه لم ير أي قبلة ولو مرة واحـــدة فـــي فناء الجامعة بينما نفس الطلاب والطالبات يتبادلون مثل هذه القبلات فور ابتعادهم عن الأسوار.. وذلك جعله يراجع بعض النتائج التي توصـــل إليها من دراسته لموضوع القبلات فاعترف بوجود الأسوار.. كما أنـــه صنفها حسب وقت وقوعها فوجدها نادرة أو تقريباً غير موجودة في الصـــباح، وقليل منها وقت الظهر وكثير منها في المساء بعد الخروج من

العمـــل.. وتكثر بشدة في عطلة نهاية الأسبوع إلى الحد الذي يندر فيه أن نجد شفاهاً متوقفة أكثر من دقيقة عن التقبيل.. ويكون التوقف عادة لالتقاط الأنفاس..

وأراد أن يطـــور بحـــثه أكـــثر لمعرفة العلاقة بين الذين يتبادلون القبلات.. فوجد صعوبة في الوصول إلى هذه المعلومة.. ولم يكن أمامه إلا أن يراقب اثنين بعينهما ويتابع خطواتهما.. فاكتشف أولاً أنها لا تقبل أحداً غيره وهو كذلك لا يقبل واحدة غيرها.. ثم وجدهما متلازمين..

فـــأراد أن يعـــرف أكثر بعد أن توقع أو أنه عرف يقيناً أن العلاقة تصل إلى أقصى مداها خلف الأبواب المغلقة.. كان أهم سؤال يحيره وأهم نقطة يجدها جديرة بالبحث ومفتاح الحدوتة كلها والذي سيفتح الأبواب نحو الفهـــم المتكامل الأعمق هو: ما الفرق بين هذه القبلات التي يتبادلانها في الطـــريق العام وتلك القبلات الأخرى التي يتبادلانها خلف الأبواب المغلقة والتي تسبق الأحداث الجسمية؟

وبالـــرغم مـــن أنـــه نجح في للتواصل إلى نتائج مهمة من أبحاثه المتعلقة بخواص المواد إلا أنه وبعد مرور أربع سنوات كاملة في هذا البلد لم يفلح في العثور على الإجابة عن سؤاله المهم المتعلق بالفرق بين قبلات الشارع وقبلات السرير. وفي مرة هداه تفكيره إلى أن أفضل وسيلة هي أن يجرب بنفسه أي أن يدخل في علاقة مع زميلة.. ولكنه استناداً إلى المنهج العلمـــي في البحث عرف أنه سيصل إلى نتائج مضللة لأن أي بحث علمي يهـــدف إلـــى التعرف على نقطة معينة يستوجب تثبيت العوامل الأساسية ويبقى عامل واحد متغير وهو النقطة التي نود استكشافها.. ولهذا لن يصلح هو كطرف في موضوع دراسة الفرق بين نوعين من القبلات.

ولـذا كان عليه أن يلجأ إلى منهج علمي آخر وهو جمع المعلومات عـن طريق المقابلة الشخصية.. أي يقابل أكبر عدد من الناس ويسألهم نفس السـؤال ثـم يتعامل مع البيانات التي جمعها بطريقة إحصائية يخرج منها بنتيجة لها دلالة.

ولكن وجد أن هذا أمر صعب جداً بل يكاد يكون مستحيلاً فالسؤال يسبب حرجاً كبيراً وهو لا يجرؤ أن يسأله.. كيف يسأل عن الفرق بين قبلة الطريق وقبلة السرير.

وضـحك من نفسه حين خطر على باله المنهج العلمي الثاني الذي يسـتخدم فـي مـثل هـذه الحالات وهو الملاحظة.. أي يراقب هو الذين يتـبادلون القـبلات في الحالتين المختلفين ويسجل ملاحظاته.. وقد يحتاج الأمر إلى أجهزة القياس الفسيولوجي التي تقيس سرعة النبض وضغط الدم وكمـية العرق وبقية الظواهر الفسيولوجية الأخرى التي تصاحب القبلات في الحالات المختلفة.

وترك جانباً فكرة أن تأتي المعلومة عن طريق بحث علمي منهجي وقرر أن يسأل السؤال لشخص واحد فقط يكون قريباً منه بحيث يتقبل منه السؤال ويرضى أن يعطيه إجابة شافية.

ولم يجد أمامه غير السيدة العجوز التي يسكن عندها والتي تجاوزت الثمانيـن فأجابـته بابتسامة تكشف عن التذكر لفترة مثيرة من حياتها.. لا يوجـد أي فـرق على الإطلاق بين قبلة الطريق وقبلة الفراش إلا أننا في الطـريق نعرف حرمته وأنه يجب ألا نخدش حياء الآخرين ولذا نتحكم في أنفسنا. .. نظر إليها دون أن يفهم شيئاً.. وقرر أن يهمل هذه النقطة بالذات من بحثه رغم أنها لب الموضوع.

أول ليلة في رمضان

مـــا أن انتهى من صلاته حتى جاءه البشير ينبئه بأن رمضان غداً، فاجـــتاحه الفـــرح، عادت أيام السرور، وتردد من المذياع أغنية الترحيب المعهـــودة فازداد فرحاً، إنها أغنية لا يسمعها إلا مع اللحظات الأولى لهذه المناســـبة مرة كل عام ومنذ أربعين عاماً أو أكثر حين كان في السادسة أو الســـابعة، حقـــاً لقـــد هل الشهر، هرعت الأسرة إلى التليفزيون ولكنه آثر ملازمـــته للمذيـــاع، مدد جسده على الفراش وأطفأ الأنوار وأغمض عينيه وغاص في يمّ الذكريات، ثم تواشيح معروفة أعقبت الأغنية، تواشيح نادراً مـــا تـــذاع خارج رمضان، فامتلأ قلبه بالخشوع فعايش مزيجاً غريباً من الفرحة والخشوع لا يعانيه عادة إلا مع اللحظات الأولى لأي حدث يهزه أو يشده إلى الماضي السحيق.

ودارت عجلة الزمن إلى الوراء فإذا هو في السادسة أو السابعة من عمره، هذا أبي وهذه أمي وهذا أخي الأصغر وثمة فرقعات لا يخطئ أحد مصـــدرها، إنهـــا إحـــدى وسائل الإعلان عن مجيء الشهر لمن لا يملك مذياعـــاً، وتتصـــاعد مع الفرقعات أصوات تغني من صغار يسهمون في الإعـــلان عـــن ثبوت الرؤية، وهي رؤية العين المجردة للهلال، ثم تتبعث جلبة من الشارع الذي يموج بحركة مفاجئة تلازم الإعلان وكأن الناس قد

فوجئوا، يروحون ويغدون، ويسعون لشراء ما يلزم من طعام خاص ارتبط بالشهر، طعام لم يتغير أبداً، مفردات ثابتة، وجبات مقررة في كل بيت، لا تخلــو مائدة منها، يا سبحان الله، هذا أول مظاهر المشاركة والوحدة طعام بعيــنه يأكله الجميع.. ويستأذن في أن يخرج إلى الشارع ويلقى معارضة غــير حازمة من الوالد تشجعه على الخروج أكثر مما تمنعه، ويكاد يطير مــن الفــرح، لا يخــرج لأصدقاء، وإنما يمضي وحيداً هائماً، يصل إلى المــيدان ويقترب من حوافي الجامع الكبير، صخب ومرح، وأناس كثيرون وأضواء ووجوه مستبشرة. ويصفو الجو، كل شيء منعش، كل شيء سار، ثمــة سكينة تغمر النفس وثمة حب يفيض في كل اتجاه كإناء امتلأ لآخره وفــاض، ويعود أدراجه حيث ابتعد الليل عند أكثر من منتصفه، وهذا أمر غريــب أن يعود في هذا الوقت المتأخر، شيء لا يتكرر إلا مرة كل عام وفي أول يوم بالذات، بل هي أول ليلة، فاليوم ذاته لم يجيء بعد، إنه غداً، غداً يبدأ الصوم.

ويعلــو صوت يوقظ الناس وما هم بنائمين، في هذه الليلة بالذات لا ينام أحد، الفرحة تنبه كل الحواس فيستعصي النوم، ولكن الرجل ومساعده يصــران علــى الــنداء، أصــحى يا صايم وحد الدايم، علامة أخرى من علامات الشهر، إنه من الثوابت، وما أروع الثوابت، كل شيء يتكرر مثلما كان يحدث من عام ومن عشر سنوات ومن مائة سنة، ومنذ ألف سنة، إنه نفس النداء، وهذه الثوابت في ذاتها هي خروج عن المألوف، ذلك المألوف الــذي ســئمناه على مدى إحد عشر شهراً، ويتزاحم كل شيء من أجل أن يــأخذ مكانه على خريطة الثوابت. لابد من معايشة كل شيء في أول ليلة، أول لــيلة هــي أحلــى ليلة، يتم فيها الشحن إلى أقصى مدى، إنه التلهف

والشـــوق والجوع والترقب والتطلع والانتظار، إنها الليلة التي تؤذن بكسر الروتين الرهيب الذي يزهق النفس.

ويـــتعمدون أن يـــتأخر وقـــت الطعام حتى لا يأتي الجوع مبكراً، ويتـــناهى إلى السمع اللحن المميز لبرنامج السحر والخيال وكل ليلة حتى ألـــف لـــيلة، وصـــاحبة المقدمـــة صوتها مميز أيضاً، أهم ما جاء في هذا الصوت الكبرياء والثقة بالنفس واليقين بأن لها سحراً ودلالاً يخلب الألباب فيرجئ الملك موعد قتلها، ليلة بعد ليلة، ثم التواشيح التي تمهد لقرب موعد الصـــلاة، فننكـــب علـــى الطعام، نأكل أكثر مما نطيق، ومفردات الطعام معروفة وثابتة، جميع الأمة تأكل نفس الطعام، وتحين الصلاة، ليست ككل صلاة، الصلاة التي تحدد انتهاء ليل وطلوع نهار، ثم فرقعة ضخمة نمتنع بعدهـــا عـــن الطعام، وفي هذه اللحظة بالذات نشعر بالعطش. نندم لأننا لم نسارع لنرشف شفطة ماء، ونقرأ القرآن وننام، وقراءة الليلة لابد أن تكون بصـــوت مرتفع عن العادة، أيضاً هي عادة مألوفة، فبداية أول يوم لابد أن تكـــون قـــرآنا يســـمعه الجميع ويشارك فيه الجميع، وننام بقلوب راضية ونفوس مطمئنة، ونصحو على فرحة يوم مختلف، المواعيد متأخرة ساعة، الـــناس متراخون، يريدون أن يستمتعوا بميزة أنهم صائمون، العمل القليل دلـــيل صـــيام، والانشغال يكون بمائدة الإفطار، يطوف بها الخيال وتتماثل الصـــور تمـــلأ فراغات العقل وتثير اللعاب، يضبط الإنسان نفسه في هذا الموقف فيتراجع ويستغفر.

فالصـــائم يجـــب ألا يشتهي طعاما، هذه كانت أول زلة، ولكن باب الاستغفار مفتوح على مصراعيه، ثم تعبر امرأة النظرة الأولى لك والثانية علـــيك، ولكن في رمضان يجب ألا تكون هناك نظرة أولى، ولكن العين لا

يمكــن أن نــتحكم في اتجاه حركتها، ويتحرك في النفس شيء إنه ميل إنها طبيعــته التي يستهويها الجمال، ويتحرك شيء في داخله، ولكن ألماً أكبر كوخــز الإبر يدفع بعينيه بعيداً إلا أن الفكرة تظل عالقة برأسه جهداً، جهداً إرادياً، إنها الرغبة الأكيدة في أن يسمو وألا يفسد صيامه.

يســتطيع في النهاية أن يمحو الصورة وأن ينتزعها من ثنايا مخه، ويفرح بانتصاره، الفضل لرمضان، روح رمضان..

وتــأخذ الشمس في تراجع، وتزيد مساحات الظل على الأرض، لقد اقــترب الموعــد، وتشرئب النفوس تطلعاً وترقباً، وتتابع الأحداث بنصف وعي، الوعي الأكبر يكون في إعداد الولائم ومتابعة مرور الوقت، ومازال المذيــاع هــو الذي يأخذه تماماً، آه من ذكريات تلك اللحظات التي تسبق أفــول الشــمس، ويــبدو الجــنون في الشارع على أشده، لابد من اللحاق باللحظــة الأولى، وتحدث فرقعة ضخمة لا يكون بدونها الإفطار حتى لو أشــارت الســاعة إلــى الموعد الصحيح، لا وألف لا، لابد من المدفع، لا إفطار بدون مدفع، ولا صوم بدون مدفع، ما أروع الثوابت، منذ عام ومنذ ألف عام.

ويهــدأ الكون لحظة، ويعلو الأذان، صاحب الصوت الساحر يرفع الأذان، فيرتفع به ويرتفع بنا، لحظة العمر في حياة أي إنسان، لحظة أنني صــدقت معك يا خالقي فصمت لك، لا أحد على يقين من صومي إلا أنت ولــذا فالجزاء منك أنت، ولابد من الشراب القمري المألوف، ثم التمر، ثم الصلاة، ثم اللقيمات الأولى، ثم التخمة، ولكنها العادة، عادة أن تكون متخماً وفــي حالــة يرثى لها من صعوبة التنفس، ولكن النشاط يسري في الخلايا مرة أخرى فتتيقظ كل الحواس وتعود الدماء لتتوزع بعدالة على كل الجسد

وتــبدأ انطلاقة جديدة، نفس الفرقعات المتناثرة، وغناء الأطفال، وانطلاق الكــبار فــي كــل اتجاه، وهي أماكن ثابتة أيضاً، وأماكن مشهورة، أماكن معروفة بعينها، ورغم أنها متاحة طوال العام إلا أن زيارتها لا تحلو إلا في هــذه الأيـــام، ما أحلى الشاي والدخان مخلوطاً بصوت الذاكرين الحامدين المستغفرين، وتحدث مضايقات من شدة الزحام، وتفلت الأعصاب، ويتلوى اللســـان كالأفعى بالسباب، ويتدخل أحد الصالحين، وينادي رمضان كريم، فــتقع الكلمـــة ككـــرباج على نفوس المتشاجرين، فيتراجعون، ويتسامحون، ويعتذرون، وتكاد تنشأ مشاجرة أخرى لأن كلاً منهما يريد أن يسبق الآخر بالاعتذار من فرط التسامح الذي يلف بالأنفس.

ومـــا أحب قط التليفزيون، ظل عاشقاً للمذياع مذياع رمضان ليس كمثل أي مذياع، مذياع رمضان، هو رمضان ذاته، وينتظر بشوق شديد كل لــيلة ويتمنى أن تستمر ألف ليلة ويظل صوت موسيقاها يصدح في وجدانه، إنـــه عالم مسحور يوقف أنفاس الكبار مثلما يفعل الصغار، ويستمر السهر حــتى اللحظة الفاروقية، واستقبال الصباح يأتي متأخراً، والقرآن يعمر كل جنــبات الكـــون، والصلاة تقام في كل ركن، وتعم الطهارة ويصفو الهواء وتطيب النفوس وتخشع الأفئدة وتتوارى الشهوات إلا من خفقات بريئة حتى وإن كانت غير بريئة فإنها سرعان ما يمكن الخلاص منها.

وعلى كل حال فهي مرتبة لا يمكن الوصول إليها إلا في رمضان، والأمـــر نسبي، إلا أن التطهر يصل مداه والإرادة تقوى على منع أشياء لا يمكن منعها في غير رمضان وذلك لأن رمضان رمضان القرآن، ولذا فإن قـــرآن رمضان يقف حاجزاً ضد أي ميل أو هوى، والنفس أمارة بالسوء، والســـوء الـــذي بهـــا يقاوم رمضان يطوف بالنفس بعيداً في عالم الجمال

المحـــرم، ولكن ساعد رمضان أقوى، فيشدنا إلى الناحية الأخرى، فيحدث شبه تمزق، ولكن الإنسان في النهاية يفرح لانتصاره والفضل لرمضان منذ أول ليلة في رمضان.

ألوان من الحياة

همـــا لاشـــك حياتان، حياتنا الدنيا، وحياتنا في الآخرة، أي ما بعد الممـــات، ولـــولا ذلك لما فرح بعض الناس بالموت وسعوا إليه مستبشرين طامحيـــن إلى الخلود والأبدية، متفيئين بظل الله مباشرة، راجين الدنو دون أن تعشي الأبصار، آملين اللقاء بالأحباب دون خشية فراق وما أقسى فراق من أحببناهم في دنيانا.

لقاء الحبيب:

لا يدفـــئ إنســـان واحد فراشاً، الدفء يصنعه اثنان، ليسا رجلين، وليســا امرأتيـــن، ويبدو أنه حينما تختلّط أنفاس امرأة مع أنفاس رجل، ثم يعـــاد استنشـــاق هذا المزيج فإن ثمة حرارة تنبعث من الرئتين قاطبة نحو القلب فتدفئه، وحين يدفأ القلب حتماً سيسرح الدفء إلى كل الجسد مع كل قطرة دماء.

فـــي هـــذا الشـــتاء حرمت من هذا النوع الخاص من الدفء الذي اعـــتادت علـــيه طوال خمسين سنة من عمرها هي عمر زواجها من ذلك الـــرجل الـــذي مات على أعتاب الصيف الماضي وإذا ببرودة هذا الشتاء تداهمهـــا دون أن تكون مسلحة بهذا الرجل في فراشها وفشلت كل وسائل التدفئة الصناعية في أن توقف ارتعاش أوصالها واصطكاك أسنانها.

كان برداً غير محتمل صاحبه صمت قاتل، ولعل الصمت الذي لف البيـت كان أحد أسباب عصيان الهواء ورفضه لتلك الآلية، ولا ألف مدفئة تسـتطيع أن تقاوم برودة هواء غير مشبع بأنفاس رجل، هكذا قالت المرأة الوحـيدة التـي تجاوزت السبعين لنفسها وهي تدفس رأسها بين وسادتين وتلملم الأغطية الثقيلة الفاشلة حول نفسها، وفي هذه الليلة بالذات أدركت أن دفء المكـان لم يكن فقط بسبب الهواء الذي كان يجول بين دروب رئتين ويخرج ساخناً وإنما كان أيضاً بسبب ذلك الصوت الذي كان يصدره وهو نـائم ويطلق عليه الشخير، فالشخير دليل الحياة، وفكرة الحياة ذاتها تبعث علـى الـدفء أمـا الصمت فهو دليل موت، وأهم دليل للموت هو انعدام الحرارة، إذن فكرة الموت ذاتها هي التي تحقن الجليد في العروق.

يالعظمـة الفكـر عـند الإنسان، الفكرة أقوى من أي وجود مادي، فتعساً لمدفئة حديثة تعمل بالكهرباء أو حتى بالذرة بينما هي ذاتها في حاجة إلـى من يدفئ سطحها البارد ولم تعد الحياة محتملة، لقد تصدع كل شيء داخلهـا وخارجهـا ولا مفـر، فهي لا تدري ماذا تفعل في هذه الحياة ولا تـدري مـاذا تفعل بهذه الحياة، البرد يحاصرها والصمت يطبق على كل حواسـها، ودبت الفوضى في هذه الحواس، يا وقت امض، أنا في عجلة، الدقيقة عندي الآن تساوي ألف عام من الانتظار.

اقـترب مـن الهدف، بقيت ثوان، لم تشتت ذهنه الفرحة بل ازداد تركـيزاً وتحديداً للهدف، الإصابة الدقيقة تكون مفجعة أكثر، اقترب أكثر، تبقـت ثانيتان تردد في سمعه لحن قادم من السماء شديد الشجن، مزيج من الوداع والاستقبال، لحن من نوع غريب جديد، إنه غير الألحان التي تسبق جـنازات المهميـن علـى الأرض، ألحان الأرض للوداع فقط، المغادرة،

النهاية، أما اللحن الذي سمعه وهو في السماء فهو لحن الأمل، لحن الاستقبال الحافل، لحن الترحيب بالقدوم لحن لا يمكن أن يصدر إلا عن ملائكة أُوحى لها حيث يلهمها الله، تبقت ثانية واحدة، يا فرحتاه، يا سعداه، الحمد لله، السلام عليكم ورحمة الله.

فأصبح جلدها هو الذي يستشعر الصمت، نعم أصبح الجلد أذاناً تتلهف على صوته الذي اختفى، عجبي على جلد يسمع وأذن تشم وأنف يرى وعين تتذوق، وهذا لا يحدث إلا مع الحرمان، إنه زئير الجوع للحب، هنا تفقد الحواس تخصصاتها فتتلمس أي مثير يكون مصدره الحبيب، مجرد رائحة مثلاً تلتهمها كل الحواس مجتمعة ولا يستطيع أن يقتنصها الأنف وحده، مجرد صوته مثلاً تتسابق ناحيته كل الحواس مجتمعة ولا تجرؤ أن تلتقطه الأذن وحدها.

لم تستطع أن تنام هذه الليلة، مدت يدها في الظلام يمينها حيث كان يرقد فوجدت مكانه شاغراً رغم أنها كانت تعرف أنه قد رحل، هل كان أملاً في معجزة أم خيالاً قوياً يجسد ما هو غير موجود فيصبح موجوداً، ارتدت يدها خائبة، ولكن وبدون يأس أمعن خيالها في ضلالاته فصور لها أنه قام للحمام وسيعود إلى جوارها بين لحظة وأخرى، ولكنه لم يعد ولم يكن هناك ما يشير إلى وجوده داخل البيت من صوت يحدثه عن تعمد أو مصباح يضيئه تعنتاً وذلك حين يرغب في إيقاظها لحاجة في نفسه.

وحين يئست من عودته نهضت مس فراشها ودارت في حجرات البيت ثم عادت حيث كانت خائبة.

وزاد إلحاح حواسها على تلمس أي إصداراته، ولكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق، ليس من أثر، لا شيء يدل على أنه عاش زمناً في

هذا المكان إلا ملابسه وأوراقه، وبعض صوره وبعض أدواته أهمها شفرة حلاقـة ذقـنه، يا سبحان الله، هل هذا فقط هو ما يتبقى من الإنسان!! أين القامـة المهيبة والصوت المجلجل والنظرة العميقة والبسمة الحنون والفكرة الصائبة والدعابة المنعشة واللمسة الساحرة والاقتراب الجنوني الذي يخلف نشوة عارمة.

وفجـأة سـمعت صـوته ينادي من خارج الحجرة فاشتعل كيانها بالفـرحة وتعمـدت ألا تـرد إمعاناً في إغاظته، ولم يعاود النداء، فذهبت لتبحث عنه فلم تجده فظنت أنه يلاعبها فاطمأنت لذلك وعادت إلى فراشها فنامـت.. ومضـت شـهور أخرى وحل اليقين برحيله محل أي ضلالات يصنعها خيال متشوق.

وبـزغ أمـل كفجر يتحدى ليلاً حالكاً سينتصر فيه الفجر لا محالة وبيسر شديد، قال لها شيخ جليل: الأرواح المتحابة تتلاقى بعد الموت، وفي الجنة نتزوج مرة أخرى ممن كنا نحب في الحياة الدنيا.

لفهـا سـرور شـامل، امتلأت بسكينة بالغة، عمها هدوء شفاف، واجتاحها هواء منعش رقصت له جوانحها.

واسـتحثت المـوت أن يأتـي ليس عن يأس ولكن عن تلهف للقاء الحبيـب. وصممت على الموت، أوت إلى الفراش ودعت ربها أن تموت، ومن شدة النشوة نامت نوماً عميقاً لم تصح أبداً بعده.

ألحان السماء:

بـات ليلته مؤرقاً، خشى ألا يقع الاختيار عليه مع المجموعة التي ستذهب للقاء الله.

كـــان الموعـــد قـــد تحدد في ساعة بعينها لينطلق فتية آمنوا بربهم لضرب الظلم ثم بعدها مباشرة يصعدون للقاء المرتقب عند أقرب نقطة من النور الإلهي وفي أعلى مكانة أي في المرتبة الأولى أحياء يرزقون... وفي الصـــباح اجتمعوا، جاء المعلم، تفرسهم واحداً واحداً، كان الأمل يحدو كل واحـــد منهم، ألسنتهم داخل أفواههم تتحرك بلا توجيه للدعاء يا رب ادعني للقائك اليوم، كان صاحبنا أكثرهم قلقاً لأنه منعت عنه هذه الفرصة لمرتين سابقتين.

ونطـــق المعلـــم بالأسماء، قفز كل من سمع اسمه من شدة الفرحة، انتهى الاختيار ولم يكن من بينهم هذه المرة، فاغتم اقترب من معلمه وسأله لمـــاذا استبعدتني، أجابه بأنه يدخره إلى ما هو أصعب، سعد بالثقة وتفانى في التدريب آملاً ومترقباً تدريباً خاصاً مع صفوة تماثلة في الحنين للموت، بلغوا أقصى درجات التلهف، كانوا يحلمون حلماً متكرراً في اليقظة وأثناء الـــنوم أن أخر قطرة من دمائهم قد صفيت وغادرت الروح الجسد، ثم من بعدهـــا يصعدون، آه من عشق الموت-الذي يفوق عشق الحياة الدنيا، ليس يأســـاً ولا اكتئاباً، ليس انتحاراً ولكنه تطلع للحياة الأخرى، الخلود، النعيم، السلام، وحانت اللحظة الكبرى، وانطلق، انطلق بقوة ألف صاروخ، ؟'

روحه هي الوقود، الروح المتوثبة هي أعظم وقود، وقود خاص للصواريخ الصـــاعدة إلـــى السماء بقوة لا تقاوم، شملته سكينه، نشوة، فرحة، ارتفع، وارتفـــع، وكلمـــا اقـــترب ارتعش من شدة السرور، وداهمه يقين بابتهاج الســـماء لاستقباله، لقد تزينت السماء، واصطف من سيستقبلونه ويقودونه إلى حيث النور الأعظم.



انتصار الحياة

لا ينتصـــر مـــوت علـــى حياة.. لا ينجح موت إلا في إيقاف قلب نـــابض، ولكـــنه يفضل في غزو القلوب العامرة بالأمل والفرحة.. والقدرة علـــى إيقـــاف النبض ليست انتصاراً، الانتصار هو التمني والناس يتمنون الحـــياة ولـــيس الموت.. التمني عشق للمستقبل التمني يعد بالأمل.. التمني ترقـــب للســـعادة وترقب السعادة أهم من السعادة ذاتها.. إذ يكفي أن تتمنى فهـــذا دليل حياة.. دليل حرصك على الحياة.. معنى الحياة لا يكون إلا في كلمة واحدة: الأمل.

إلا أن بعـــض الـــناس يسعون إلى الموت اختيارا فيزهو الموت أنه مـــرغوب إلا أنهـــا في الحقيقة ليست رغبة.. فالرغبة تعبير عن الهوى.. والهوى ميل وانجذاب وبحث عن الارتواء كمن يهتف عطشان يا صبايا.

إذن الســـعي إلـــى الموت لا يكون إلا حينما تموت الرغبة ويطبق اليأس، إنه موت يسبق الموت، موت الروح يسبق موت الجسد.. وقل عن الروح إنها الرغبة والتمني والفرحة واللذة والسعادة والنشوة.. إنها الحركة والنشـــاط والحيوية والنبض.. إنها الهوى والشوق والعشق قل عن الروح إنها اللحن الطروب والكلام الموزون المخطوط، قل عن الروح إنها بزوغ الفجـــر واســـتدارة القمر وسحر الليل وعرق النار وعبق الأزهار قل عن

الــروح إنها ذلك الانجذاب الخفي نتاج تفاعل باطني فيسعى رجل إلى امرأة وتــتلهف امرأة على رجل.. قل عن الروح إنها القبلة والمضاجعة وصريخ وليد وصل لتوه من رحم أمه.

هــذه هي الروح فإذا جاء الموت لجسد بلا روح فهذا ليس انتصاراً مــا أســهل أن تقبض على جسد بلا روح ما أسهل أن تميت جسداً تعطلت روحه ولا ينهش الروح إلا اليأس. لم يكن يتصور أنه سينهار إلى هذا الحد حينما عايش اللحظات الأخيرة لأبيه. كان بجواره ممسكاً بيده.. ربما كانت هــذه المرة الأولى التي يمسك فيها بيد أبيه.. بالقطع أمسك بها كثيراً وهو طفل.. ولكنه لا يتذكر، لا يتذكر هذه اليد إلا وهي تصفعه أو تشده من أذنه إلى حد الألم الذي لا يحتمل.

اعتصـــر قلــبه وهو يرى أباه يهذي بكلمات غير مفهومة تدل على حالة متفاقمة من تشوش الوعي أين عقلك الصاحي اليقظ يا أبي. أين عقلك الفــولاذي الذي كانت لا تفوت عليه فائتة ولا تخفى عليه شاردة ولا يملك أحــد أن يواري عنه شيئاً.. فإذا تجرأ أحد وفعل تنطلق من عينية شرارات ناريــة تصــعقه في مكانه خوفاً فما بالك بمن يحاول أن يكذب أو يدس أو يخــدع أو يغش فيكون الموت رعباً من نصيبه ولا يجرؤ أحد أن يشفع له فقد كنت العدو الأول للكذب.

وحيــن تراخــت عضلات الجفنين، لتحجبا أكثر من النصف العلوي للحدقتين دليل دنو اللحظات الأخيرة التاع قلب الابن أين نظراتك الصارمة يا أبي.. أين وجهك الجامد الأصلب من الحديد خاصة إذا أخطأ أحد أو تجاوز فــي القول أو خرج عن الحدود اللائقة.. كانت تعبيرات وجهك تكفي لأن يقف كل معتد أو آثم عند حدود يصعقه مس كهربائي إذا حاول أن يتعداها.

ويـــا ويلتـــي لقد تراخت عضلات رقبتك فمالت رأسك على جنب وكأنها ستخلع من موقعها.. أين هذا الرأس المرفوع الشامخ بفضل شجاعة قلـــب كقلـــب الأسد.. وكان مصدر شجاعتك هو شرفك وأمانتك.. هيبتك لم يكـــن مصـــدرها جعجعة صوت أو تدني لسان وإنما كنت مهاباً لأنك كنت محـــترماً، وكنـــت محـــترماً لأنـــك كنت خلقياً، وكنت خلقياً لتمسكك بقيم مصـــدرها الـــذي خلقك وآمنت به بعقلك قبل قلبك.. ومن علامات الموت الصحوة المؤقتة.. وهي علامة مؤكدة.. ربما يريد الموت أن يعلن بها عن انتصـــاره وتكلم الأب.. واستمع الابن دون أن يريد مثلما فعل طوال حياته حيث كان يسمع فقط بقلب مرتجف دون أن ينطق وظل كذلك حتى بعد أن أصـــبح هـــو ذاته أباً.. لم يكن يستطيع أن ينطق أمام أبيه.. وفشل في أن يـــتحكم فـــي ارتجاف قلبه في حضرة أبيه.. نطق الأب بالوصية الأخيرة واعترف له الأب بأنه أعز إنسان لديه.

وخرج الابن على القوم الملتفين حول المكان يعلن موت أبيه.

وتقـــدم الجـــنازة بقلـــب كسير وجسد مهدور وعقل مشطور ورغم أعـــوام عمره التي بلغت الخمسين فإنه أحس بأنه طفل ضائع تائه.. وتذكر يـــوم أن انفلتـــت يـــده مـــن يد أبيه وسط زحام كبير عرف يومها معنى الضياع.. وعادت إليه الحياة حين رأى وجه أبيه المتلهف.

ووصـــلوا إلى المقبرة. وانفتح بطنها لتلقي طعام التراب.. وانبرى واحـــد من الرجال لا يعرفه ليعظ الناس ممجداً الموت مستتفهاً الحياة داعياً إلـــى نـــبذها ثـــم زحزحت الأحجار لتغلق الفوهة بعد أن مرق منها الجسد واستقر بجوار من سبقوه وبدأ المشيعون في الانصراف أما الابن فقد شعر برغـــبة فـــي الـــبقاء نعم هو يرغب في البقاء بجوار أبيه لا خير في حياة

غادرهـا هـذا الأب كان سنده وكان عونه وكان أمنه وسلامه. لن يعود.. ولمـاذا يعـود.. وأي فائدة من عودته وكيف يقوى على أن يعمل ويعيش ويعـول إنـه الآن ضـعيف.. لا شيء إنه صفر.. لقد غادرته الروح في اللحظـة التـي غـادرت فـيها جسد أبيه ما أثقل أن يعود مرة أخرى إلى الحياة.. ما أتعسه ما أيأسه وفجأة برق نور في عقله بعث أملاً في نفسه في لحظة جاءته الفكرة فلينزل ليرقد بجوار أبيه نعم هذا هو الحل الذي أراحه وبـدد يأسـه بل أبهجه أنا في حاجة إليك يا أبي أنا لا أقوى على أن أبقى فوق سطح الأرض بينما أنت في باطنها.

واسـتبقى راعي المقبرة وأفصح له عن رغبته وترجاه في أن يعيد فـتح المقبرة ووعده بأن يعطيه كل ما معه من مال وفي هذه اللحظة تذكر زوجـته وابنتـيه وأمـه المسكينة التي ترملت لتوها وشقيقته المطلقة التي يعولها وشقيقه الطالب الذي يدعمه.. كان مسئولاً عن كل هؤلاء حين طعن أبـوه فـي السـن وأصبح غير قادر على الحركة فقرر أن يكتب وصيته ويسلمها لراعي المقبرة.

واستسـلم الراعي أمام ضخامة المبلغ الذي وعد به.. وأخذ في رفع الأحجـار التـي كانت قد استقرت لتوها.. ويبدو أنه كان مدرباً على نبش القبور وتجرد الابن من ملابسه التي طمع فيها راعي القبر واستولى أيضاً على ملابسه وساعته وأقلامه.

وفجـأة اشـتم رائحـة طعام انبعث من مقبرة مجاورة يعيش فيها الأحياء والأموات.. وكان قريباً من رائحة طهو زوجته وامتلأ فمه باللعاب وتحركـت معدتـه، وعبر خياله صورة لمائدة تعج بالأصناف التي برعت فـيها زوجـته وتمنى لو أنه يذوق من طعام جيرانه شيئاً قبل أن ينزل إلى

المقبرة ولكنه لم يجرؤ على الإفصاح عن رغبته للرجل الذي كان يستعجله بالنزول داخل المقبرة ومع الضغط النفسي الذي بدأ يمارسه راعي المقبرة لاحت في الأفق صورة الزوجة ولا يدري لماذا لاحت له وهي عارية تماماً وفـــي اللحظة التالية وثب إلى جوارها في الفراش هكذا ارتسمت الصورة فـــي خـــياله ثم أخذ يداعبها فأرجأته إلى أن تتعطر كل هذا كان في خياله واشتم فعلاً رائحة العطر وهو يهم بالنزول إلى المقبرة وأدار ظهره لراعي المقبرة خشية أن يلحظ الرجل شيئاً غير عادي لا يتفق مع طبيعة الموقف، وقـــدر حزنه وتحرقه للرقود بجوار أبيه وليس بجوار زوجته. واستبدت به رغـــبة الطعـــام ورغبة الحب بإلحاح شديد امتلك عليه كل تفكيره والرجل بجـــواره يلح عليه الانتهاء من هذه العملية الخطرة بينما الصور تتابع في رأســـه ملهـــبة وجدانه وحواسه واستقر الفيلم على صورة طفلتيه فاجتاحته رغـــبة عارمة أخرى في أن يحتضنهما شعر بعضلات صدره تتشوق لهذه الأحضـــان تـــتلذذ الصـــدور بالأحضان مثل تلذذ القلوب بالاقتراب وتبادل الأحضـــان للدقـــات.. وتذكر طلب إحدى ابنتيه لشراء لعبة معينة.. وتذكر موعد الأخرى مع طبيبها.

وبيـــنما هـــو مستغرق في متابعته لصور أحبائه إذا بيد تدفعه بشدة فالتفـــت فـــإذا راعي المقبرة يطبق على يده ويجذبه منها ليدخل بها حيث يســـتقر تحت الأرض بجوار أبيه.. ونشأ صراع بينهما الرجل يشد من يده وهو يحاول انتزاعها منه بأقصى ما لديه من قوة فدفعه الرجل فسقط على الأرض، وركـــب فوقـــه وأطبق بكلتا يديه على عنقه ربما أراد أن يزهق روحـــه قبل أن يدفنه وشعر الابن بدنو الموت فقاوم وتملكته أقصى رغبة فـــي الدفاع عن حياته وفي خضم هذا الصراع الرهيب الذي تقدر عواقبه

بعـــد كل ثانية لاح في رأسه خاطر استغرق أقل من واحد على مليون من الثانية.

ماذا يحدث الآن ؟ لماذا أحاول دفع هذا الرجل عني ؟ لماذا أريد أن أفلـــت منه رغم أنه يسدي لي معروفاً ؟ أنه ينفذ رغبتي إنه يساعدني على أن أمـــوت.. فلمــــاذا أقاومــــه معنى أنني أقاومه أنني أريد الحياة ولا أريد الموت فماذا أريد حقاً أريد باطن الأرض أم أريد سطحها أريد ظلمة القبور أم شمس النهار وقمر الليالي أريد أن تطعمني الديدان أم أريد طعام زوجتي أريد الرقاد بجوار أبي أم أريد الرقاد بجوار كل جانب من جوانب زوجتي أريد رائحة التراب أم أريد أن اشتم العطر الأنثوي.

كل هذه الخواطر والأسئلة عبرت رأسه في هذا الجزء من المليون مـــن الثانـــية ولم يدر إلا وقد قذف براعي القبر بعيداً عنه وانطلق يجري بأقصى سرعة مخلفاً المقبرة وراء ظهره وصل إلى الطريق العام وهو عار تمامـــاً يكاد يطير من فوق الأرض ظناً أن راعي المقبرة يتبعه عدواً وفي عـــرض الطـــريق سقط مغشياً عليه بعد أن كادت سيارة أن تدهسه.. أفاق وهـــو في مستشفى للأمراض العقلية ولم يصدق الطبيب أن روايته حقيقية وشخص حالته على أنها حالة عقلية متقدمة نتيجة لصدمة وفاة أبيه.

وخرج من المستشفى حاملاً معه تذكرة علاج اعتبرها شهادة ميلاد عاد إلى البيت طلب من زوجته إعداد الطعام الذي اشتم رائحته، دعا طفلتيه إلى حضنه تناولوا الطعام بتلذذ شديد وأودع طفلتيه الفراش وذهب بزوجته إلى الفراش حيث لذة أشد.

دمية يصنعها الشيطان

الدمية لا تتحرك من تلقائها، ولا تعرف كيف تتكلم.. الدمية مشدودة مـن عـنقها بخـيط، ومن كل يد بخيط ومن كل رجل بخيط.. ويد عليها تحـركها.. إلى اليمين.. إلى اليسار.. إلى الخلف.. إلى الأمام.. اقفزي في الهواء.. نامي على الأرض. والناس يضحكون يتسلون والكلام ليس كلامها بـل يـنطقون لهـا من خلف ستار والأطفال يصدقون أنها تتكلم، وأحياناً يصدق الكبار من البسطاء..

ومـن يمسـكون بالخـيوط يجعلونهـا تحب وتكره وتنام وتصحو يصـنعون بها كل شيء ويستطيعون أيضاً أن ينهو دورها فيجعلوها تموت وتدخـل المسـرح دمية أخرى ليضحك الناس من جديد والجديد يثير أكثر يدهـش أكثر ويسلي أكثر والدمية تحتاج إلى بلياتشو مصنوع من الخشب مـثلها ومجرور بالخيوط وبذلك يمكن نسج قصة.. المهم أن يضحك الناس وقبل أن يضحكوا لابد أن يدفعوا والدفع ليس للدمية أو البلياتشو ولكن لمن يحـرك الخيوط لمن صنعهما ولأنهما من الخشب فإن أقصى ما تحظى به الدمـية هـو فسـتان والبلياتشو يحظى على الأكثر بطرطور ولأنهما من الخشب فلهما عمر افتراضي يحالان بعده إلى المعاش يوضعان في المخزن أو يـتحولان إلـى قباقيب.. والقبقاب هو شبشب من الخشب وهكذا بعض الناس معلقون من الخيوط مصائرهم ليست في أيديهم كلماتهم ليست ملكهم

حركتهم خارجة عن نطاق إرادتهم هم وسائل وأدوات كالدمى والبلياتشوهات يرتفعون ويهبطون حسب ما يدفع فيهم يحالون إلى المعاش أيضاً حين لا يسلون ولكنهم لا يتحولون إلى قباقيب لأنهم من لحم ودم.

النخاسون يجوبون السوق يبحثون عن دمى بشرية، الدمى البشرية لابد أن تولد جاهزة بإمكانياتها المهم أن تعثر عليها والنخاسة هي صناعة لها أشكال متعددة.. وكلها تجارة في البشر نشتري فمن يبيع؟ وبعض الدمى البشرية تذهب إلى سوق النخاسة بأرجلها نحن نبيع أنفسنا فمن يشترينا نحن نجيد فن الإضحاك والتسلية نحن موهوبون وموهوبات.

طيب اعرضوا ما لديكم ولكن الفن وحده لا يكفي، من يحب الفن يضحي ومن يعتلي الخشبة يعرف مقدماً ما له وما عليه فمثلاً من تعتلي الخشبة لابد أن تكشف عن ساقيها وإن أرادوا أكثر ستفعل وإن أرادوا أقل ستفعل حسب الدور.

والطريق صعب ومضن وخبراء النخاسة محترفون إنها صناعة الشيطان، فالشيطان يعمل كثيراً، الشيطان غير كسول، الشيطان خبيث وأساس أي صناعة يقوم بها الشيطان هو الإفساد وكل من يذهب إلى سوق النخاسة بقدميه لديه الاستعداد للفساد هذا هو الثمن ولنسمّها التضحية، حب الفن، يولد الإنسان ومعه موهبته ومعه استعدادات أخرى تتيح له التسلق والتشقلب وكشف الوجه وكشف الساق والأهم كشف الوجه والوجه المكشوف يقصر الطريق عيني عينك.

وتلوح في السوق دمية جميلة أنثى صغيرة لكن ناضجة والنضوج في الجسد فقط فمن يأتون إلى سوق النخاسة بأقدامهم ليس لهم عقل، تحوم حولها الشياطين خبراء النخاسة الصناع المهرة اعرضي ما عندك يا

شـــاطرة أنـــا أعــرف أغنـــي أرقص وأمثل البنت فعلاً موهوبة أو حتى نصـــف موهوبة نصف الموهوب، لا بأس نستطيع أن نستكمل له ما ينقص المهـــم أن الاســـتعداد موجود وفوق الاستعداد الرغبة في التضحية وتلتقط لهـــا مئات الصور وفي كل الأوضاع رائع رائع برافو أهلاً وسهلاً تقدمي يـــا فـــتاة ادخلـــي برجلك الشمال فنحن من أهل الشمال كفانا الله شر أهل اليمين.

الصـــور تملأ الصحف والمجلات صاروخ قادم إليكم ليس من قبل ولا مـــن بعـــد أوســـكار قليلة عليها معجزة ارتفعي ارتفعي لامسي النجوم واتخـــذي موقعاً بينها، إلى أين أرتفع بعد ذلك، السماء أصبحت أقرب إلي من الأرض من يردْ أن يراني فليتطلع إلى السماء ورفقاً بالرقاب أنا النجم الأوحـــد أشع الضوء في كل اتجاه اتملى بنوري تصفيق صراخ والموهبة تـــتفجر أكثر وأكثر والأدوار أصعب وأصعب تحفظ عن ظهر قلب وتردد باقتدار ولكنها لا تستطيع أن تفلت من الخيوط إن أفلتت وقعت وإن لم تردد ما يملون تحشرجت ولكنها والحق يقال رائعة رائعة في الحدود المرسومة أو رائعة في تحقيق المتصور في الخيال، هو اقتدار فعلي، لكن العقل فارغ واللسان لا ينطق إلا بكل ما هو فارغ.

ياللمصـــيبة أهـــذه هـــي نجمة النجوم أهذه صاحبة الأدوار الصعبة وزوجـــة الكاتـــب الكبـــير وصـــديقة السياســـي العتيد لكنها تصدق نفسها ويزيدونها انتفاخاً وتكتب كل الدنيا عنها ويتزاحم الناس حولها ويتساقطون فـــرحاً لرؤيتها من بعيد وتحاك الشائعات من أجل مزيد من الإثارة طلاق فـــزواج فطـــلاق فمغامـــرات بريئة وغير بريئة ومازال المسرح منصوباً ومـــازال الشيطان يحرك الخيوط ويتكلم من خلف الستار نيابة عنها. لكن

الـــناس يملـــون.. والجديـــد مثير والصغير نضير والسوق تكتظ بالقادمين الســـاعين. لابـــد من موهبة جديدة لابد من دمية جديدة ويعلن عن اكتشاف جديـــد صـــاروخ لـــم تشهد الأرض مثله انتظروا المفاجئة الكبرى النجمة القديمـــة لـــم تعـــد قادرة على أن تخرج النقود التي في الجيوب إنه الملل والـــتقدم فـــي العمـــر والجديد يزيح القديم من فضلك يا سيدتي انزلي من عرشـــك وترفض تتشبث فيمنعون عنها الماء والنور، تتراجع الأخبار تشح التحقيقات، تقل العروض، تختصر الأدوار، اقبلي أو لا تقبلي ليس لك خيار الســـوق هي السوق إن سعرك قد انخفض والجديدة مليحة جريئة ساخنة أو دافئة تستجيب أكثر، والجمهور يصفر بدلاً من أن يصفق أيها الغادرون لا وفـــاء لجمهـــور، ولكنك يا سيدتي كنت دمية فلماذا تغضبين، روعتك في اســـتجابتك لحركة الخيوط وترديد ما يضعونه على لسانك ولكن عقلك كان فارغـــاً فأنت لا تقرئين وربما لا تكتبين أنت نبت شيطاني لكنه فاقع اللون يســـر الناظريـــن فإذا جاءت من هي أزهى لوناً فأنت تتزوين والنجم حين يهوى يحترق احتراقاً ذاتياً احتراقاً من الداخل احتراقاً بفعل سرعة السقوط فهـــو لا يملك مقومات البقاء فنوره مسلط عليه من الخارج نوره لا ينبعث مـــن داخله إنه نجم مضاء وليس مضيئاً إنه نجم مصنوع وليس صانعاً إنه نجـــم مشـــتري وليس مالكاً والصحاب يتفرقون والرفاق ينفضون والشمس تغيـــب والمـــال يتبخر مثل الجمر والناس لا يلتفتون في الطريق والرفاق ينفضـــون والشمس تغيب والماس يتبخر مثل الجمر والناس لا يلتفتون في الطـــريق والعدســـات لا تمضـــي والأخبار لا تنقطع مثل انقطاع الماء في الصـــحراء والإشادة تكون بالماضي فالمستقبل يملكه آخرون وأخريات .. سوق النخاسة لا تنضب والشياطين لا تموت والمهرولون كثيرون.

طبول الحرب

الثعابين لا تترهل.. إلا أن الثعبان الأكبر يبدو مترهلاً.. ولهذا يبدو شكله مضحكاً.. وعادة نحن لا نضحك حينما نرى الثعابين وإنما نشمئز إلا أن هـذا الثعـبان المـترهل يثـير الضـحك فعلاً وهو أي الثعبان الأكبر المترهل.. يبدو أكثر إضحاكاً حينما يرقص، إذا راقبت حركته وهو يمشي سـيبدو وكأنـه يـرقص، ليس رقص الغوازي وإنما رقص الثعابين وقد تتصوره حية ربما من نوع الكوبرا لا لشيء إلا لأن تكوينه الجسدي أقرب إلى الأنثى، أنثى تتلوى، والأنثى تتلوى حين ترقص أو حين تبيع الهوى.

ورغـم أن الثعابيـن لا تحمل السم إلا في فمها إلا أن هذا الثعبان المترهل يرشح السم من كل جسده، كل خلية هي بؤرة سامة إنه يحمل سماً يكفـي لقـتل الناس جميعاً، ولهذا فهو يزهو بنفسه ولا يزداد زهواً إلا إذا سـمع طـبول الحرب يود لو يسمعها حتى في منامه، الحرب.. الحرب.. الحرب.. ما ألذها من كلمة.. القتل.. القتل.. ما أروعه من عمل.. الدم ما أطعمـه من شراب يبعث على النشوة، وقليلة وكثيرة مسكر ورائحته تسكن أنفه مثيرة أشد الرغبات الجنسية إلحاحاً، ارتبط الدم عنده بالجنس وتنتظره زوجـته علـى أحر من الجمر وتبادر بالسؤال: كم قتلت اليوم وبقدر عدد القتلى بقدر استمتاعهما معاً.

القـتل يمـنحه قـوة الثيران بالرغم من أنه ليس ثوراً وإنما ثعبان مترهل يرشح سماً ويرقص على طبول الحرب.

ورغـــم ندرة ابتساماته إلا أن قلبك ينقبض حين يبتسم فيبدو وجهه أكـــثر الوجـــوه قـــبحاً على الأرض، يا سبحان الله فبينما تجمل الابتسامة الوجوه فإن ابتسامته تزيده دمامة وتثير لدينا الحاجة إلى التقيؤ من يره يتقيأ ومـــن يسمعه يتكلم يشعر أن الشر الذي على الأرض كله قد تجمع في قلبه الحاقد المغرور وهل للثعابين قلوب؟

أمـــا كـــيف تقدم الصفوف حتى صار في المقدمة فإن الثعابين التي مثله حملته على الظهور وأفسحت له الطريق ورقص رقصة النصر وغنى بصـــوته المشوه: أنا الملك جئت لأنني منكم وأنتم مني أنتم مثلي وأنا مثلكم أنـــا النار.. أنا الشيطان.. أنا الدمار.. دقي يا طبول حتى ترتوي الأرض ســـما ودمـــا سنلتف حول كل عنق وسنخترق القصبة الهوائية وسنتجاوز العمـــود الفقـــري وصولاً إلى النخاع هذه هي غاياتنا ومرمانا وننفث السم ونشل الأطراف هذه طريقة، أما الطريقة الأخرى فتتجه إلى القلب مباشرة نهشم عظام الصدر ونعبره إلى القلب ونفرغ في داخله السم فينتشر في كل الجسم فتتوقف الحياة في التو واللحظة.

إن دستورنا يتكون من كلمة واحدة نعم كلمة واحدة فقط، إن دستور أي دولـــة يـــتألف مـــن صفحات وصفحات أما دستورنا فيتكون من كلمة اقـــتل.... وإذا أردت مضاعفة حجم دستورنا فرددها مرتين: اقتل.. اقتل.. الأولـــى للبشر والثانية لكل شيء تدب فيه الحياة فيما عدا الثعابين وابدءوا بـــالأرض فهي مصدر كل حياة احقنوا الأرض بالسم فيموت النبات ويهلك الحـــيوان وتتهاوى الطيور وتندثر الحشرات ولتبق فقط الثعابين على وجه الأرض لـــيس جديـــراً بأن يعيش إلا الثعابين ليس مختاراً ولا مفضلاً غير الثعابين وأوصيكم بقتل الأطفال حتى لا يكبروا وأوصيكم بقتل النساء حتى

لا يلدن ابدعوا دائماً بالأطفال والنساء فإنهم أشد خطراً. ومن لا تستطيعون قـتله هددوه وابتزوه أو أفسدوه وليسَخَرْ الجميع من أجل خدمتكم كل الناس عبيد ونحن فقط الأسياد.. الأسياد في كل شيء نحن المختارون.

ولا تنشـغلوا بالـتاريخ فالـتاريخ يمكن تزويره والعالم أغلبه من البسطاء لايعنيهم إلا أمور حياتهم الشخصية العالم غافل.. العالم يلهو.. العالم طفل بينما نحو عقل العالم ومحوره فلتكن كلماتنا هي المقروءة والمسموعة والمرئية لا تجعلوهم ينتهون لشيء إلا ما نمليه عليهم تفننوا في غسيل المخ وإعـادة صياغة العقول، وتلوين النفوس اصنعوا أجيالاً من البشر لا تؤمن إلا بكـم، بوعـي وفهـم أو بدون وعي وفهم والأفضل بدون وعي وفهم فـيرددوا أناشيدكم كالببغاوات. والناس قد ينقلبون ضدكم إذا عرفوا حقيقة أمـركم فأرهـبوهم، سلطوا الأسياف على أهم الرقاب احتفظوا بالفضائح المسجلة ومن يتمرد يلق حتفه عاراً أو موتاً.

ويظل الثعبان الأكبر المترهل يعظ قومه من الثعابين قائلا: وأفسدوا فـي الأرض رغـم أن الله لا يحب المفْسدين ولكن ربكم ليس هو رب كل الناس إن ربكم يحبكم أنتم ويفضلكم ولهذا فإفساد بقية الناس حلالٌ، أفسدوهم بالدعـارة والمخدرات وأفسدوا ذمم بعضهم بالمال ليكونوا أعوانكم إنهم من قـوم عدوكم ولكنهم سينضمون إليكم وما أسهل إفساد الذمم هذه الأيام لغيبة الضـمائر، ضمير العالم في أجازة، وهو قد مات لن يأبه أحد لتماديكم في تكسـير العظـام وإزهـاق الأرواح، افعلوا ما شئتم دون خشية لومة لائم، الكـلاب فـي هـذا الزمان أغلى من الإنسان إلا نحن فإنساننا عزيز علينا نبحـث عن عظامه ونلملمها حتى ولو بعد مائة عام من موته. ولتأتوا من جمـيع أطـراف العالم لتتجمعوا في هذه البقعة ولتهدوا البيوت في رؤوس

أهلهـــا ثـــم أعـــيدوا بـــناءها لتسكنوها ومن تقع عينه على شيء فهو ملكه ودوســـوا بأحذيـــتكم الملوثة بالروث كل عزيز ومقدس لديهم تدموا قلوبهم حزناً وأسفاً.

ويظـــل الثعبان الأكبر المترهل يهذي ويخطرف، وينتصب بجسده لـــيهوى على الطبلة فتصدر أسوأ نداء للحرب تصوروا ثعبان يدق الطبلة برأســـه مثلما تفعل اليد مع الطبلة بالها من صورة يسند الطبلة إلى الأرض ثـــم يرفع مقدمة جسده ثم يهوى برأسه على الطبلة بعنف بأقصى ما عنده من قوة مبعثها الحقد والحنق والسوء والشر.

ولا يكـــف عن تكرار دق الطبلة برأسه دون كلل وينتشي بأحاسيس ناشئة عن ارتطام رأسه بعنف بالطبلة ويشعلها أكثر رجع صدى دق الطبلة وحين تشاركها طبول أخرى استجابة عارمة لنداء الحرب.

وإذا بكـــل الثعابيـــن تـــدق الطبول وتنادي بالحرب إنهم شعب من الثعابين السامة وليس تجاوزاً أو ابتعاداً عن الحقيقة حين نصف إنساناً بأنه كالثعـــبان فالثعابين تقرص دون جلبة أو ضوضاء تفاجئك دون أن تشعر، تعـــرف طريقها دون أن تراها تدفعها رغبة الإيذاء والإضرار هي تعرف أنهـــا تحمـــل سماً مميتاً ويا سبحان الله على الصورة التي خلقها الله عليها حين وضع السم في فمها وتحت أسنانها سبحان الذي خلقها ملساء في لون اللـــيل حركتها لا تصد ولا يمكن لأحد أن يحذرها فإذا بها تنهشك في جزء من الثانية ثم تمضي مسرعة دون أن تنتبه إلى اتجاهها..

إن الثعابيـــن لا تواجـــه لا تـــتحدى لا تتنازل، الثعابين بلا شرف وبعض الناس بلا شرف وبعض الشعوب بلا شرف يا للمطابقة بين بعض الـــناس والثعابيـــن تكون أقرب ما يكون إلى الثعابين قد تصف إنساناً بأنه

الرحلة الثانية

لـم تكـن هذه هي النهاية.. أي لم أكن ماضية إلى العدم، بل كانت الـبداية لحياة أخرى.. إلا أن لحظاتي الأخيرة في الحياة الدنيا كانت مثيرة للغايـة.. بالـرغم من أن فكرة الموت اختيارياً راودتني منذ عشر سنوات علـى الأقـل إلا أنهـا لم تسيطر علي تماماً إلا حينما باغتني ملك الموت بـزيارته.. فـي ذلك اليوم المتشح بالسواد منذ بدايته استيقظت وكأن جبلاً جاثمـاً فوق صدري.. لم أتحرك من الفراش إلا بعد مرور ثلاث سنوات.. وبلا مبررات شعرت بعدم حب المكان.. وربما لأن ملك الموت كان يحوم حـوله.. جـاءتني الصديقة ببعض الطعام وقليل من الشاي. كانت معدتي منغلقة تماماً أمام حتى رشفة ماء. قالت لي ستموتين من الجوع.. كان لوقع كلمـة المـوت صدى غريب في أذني لم أعهده من قبل وكأنه تأكيد لقرب النهاية.. قلت لها بلهجة ساخرة تقطر مرارة إنها فرصة لينخفض وزني.. مسـحت فوق رأسي مدعية أنني مازلت جميلة.. بل أنا بشعة يا صديقتي.. أتذكريـن بداية الاكتئاب حينما قابلني صديق في الطريق ولم يتعرف إلي.. ناديته فتعرف على صوتي.. إن صوتي هو الشيء الوحيد المتبقي من آثار الماضـي.. إنه الأثر الوحيد.. التحفة الوحيدة.. هاله منظري، سقط الشعر وسـقطت الأسـنان وانـتفخ الجسد.. يالأسف.. أين أنا الآن من الزمان الأول.



التقزز يسبق الغثيان، والغثيان يسبق القيء، وكلها أحاسيس جسدية تصــدر عــن المعــدة التــي تحــتج وتنتفض بعصبية، بل تتشنج وتقذف بمحتوياتها إلى الخارج بغضب غير عابئة بعواقب الجوع والنقص الغذائي، وذلك حين تصل إلى قمة بسبب شيء فاسد طالعته العين أو شمه الأنف أو تذوقه اللسان أو نجح في الوصول إليها وملامسة جدارها، فأبت أن تحتفظ بــه، حــتى لا يســمم صاحبها، كما أن هناك مواد فاسدة، فإن هناك بشراً فاســدين لهــم رائحة ومذاق وشكل يبعث على التقزز، وبذا يصبح التقزز حالة نفسية أيضاً تبعث على الغثيان، وإن لم يعقبه قيء.

وعجيب أن يكون هناك تطابق بين أحاسيس جسدية ومشاعر نفسية، فالتقزز واحد والغثيان واحد، وهو نفس التشنج الذي يصيب المعدة، فتتلوى تذمراً ورفضاً.

وأتصــور أنني لست مختلفة عن بقية البشر، فأنا حين أرى شخصاً ما أو اسمع صوته أو أشم رائحته أو ألامسه ، تختل جميع أجزاء جسمي، وبخاصــة الجهــاز الهضمي، وعجيب أن يكون الجهاز الهضمي هو الذي يــبادر ويسارع بالاستجابة، ويكون في المقدمة لتغطي أعراضه على بقية الأعراض التي تصدر عن الأجهزة الأخرى.

ولا أســتطيع أن أصف كيف أشعر بالتقزز، لكنني أستطيع أن أقول إنــه يشــابه الــتقزز الــذي قد يشعر به أي إنسان تجاه شيء كريه يؤذي الحواس، إذن هو تقزز جسدي وإن صدر عن رؤية شخص ولا مادة عفنة.

ثــم يعقب هذا التقزز النفسي حالة من الغثيان والغثيان هو الشعور الــذي يسبق حالة القيء إنه حالة من الاضطراب والتوتر والتحفز تبدأ من الفــم وتنتهــي عند المعدة، ويصاحبها إعياء وضيق وحيرة ولا فرق بين الغثيان لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضوية فكلاهما يزحف على المعدة مهــدداً بقــذف محــتوياتها إلــى الخارج لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضــوية، فكلاهما يزحف على المعدة مهدداً بقذف محتوياتها إلى الخارج حيــن تشــارك هــي الأخرى في حالة الرفض العام لذلك الشيء أو لذلك الإنسان.

وإذا أردت أن تــتعرف على مدى فظاعة هذه الأحاسيس وأن تقف علــى المعنى الحقيقي من ورائها، فعليك أن تستعيد في ذاكرتك الأحاسيس المناقضــة أو المقابلــة أي عكســها، مثل انفتاح الشهية والرغبة العارمة، والإقــبال بــتلهف والاستنشاق المثير اللعاب السخي والانقباضات الرقيقة للمعــدة معلــنة عن استعدادها للتقبل والاحتواء والاحتضان والاحتفاظ بما يصــل إلــيها، ويصــاحب تلك الأحاسيس الجسدية أحاسيس أخرى نفسية، كالسرور والفرحة والحماسة والنشاط والثقة والأمل الواعد بلذة شيقة..

تصــور أن شخصــاً ما أو طعاما ما يثير لديك كل هذه الأحاسيس والمشــاعر الــرائعة وشخصــاً آخر أو طعاماً آخر يثير لديك كل الأحاسيس والمشــاعر السلبية من اشمئزاز وتقزز وغثيان وربما قيء أيضاً. وكما أن هــناك طعامــاً آخــر ساماً فإن هناك أيضاً إنساناً طيباً وإنساناً آخر ساماً،

والسم مبعثه فساد التكوين والمحتوى، فكل ما هو فاسد سام، وكل ما هو سام فاسد.

وعجيب أن نقابل بين الإنسان والطعام وأن نجعل بينهما مقارنة واردة على الخاطر، وهذا حقيقي، فالطعام مصدر مهم من مصادر الحياة، وهناك إنسان ما في حياة كل منا هو مصدر مهم من مصادر الحياة لمجرد وجوده في حياتنا، كما أن للطعام رائحة تخبر عنه وتكون محببة ومثاراً للشهية، ودافعاً للإقبال تماماً مثل أن لكل إنسان رائحة تذكرك به، وتجذبك إليه تفتقدها إذا غاب، وتستعيدها في ذاكرتك إذا استبد بك الشوق، نعم.. إن الروائح من الممكن استعادتها عن طريق الذاكرة، وللطعام أيضاً مذاق يجلب اللعاب سخياً، ويبعث بالحركة المترقبة للمعدة، والإنسان أيضاً له مذاق، له طعم خاص، وهو مذاق وطعم لا تدركه بلسانك وفمك، لكن تدركه بعقلك ووجدانك، تدركه بكلك، أي كل شيء فيك يتحول إلى أعصاب تذوقيه، تدرك طعم هذا الإنسان، تجعل له خصوصية، تجعله متميزاً متفرداً، له طريقة، له أسلوب، له نكهة، أي له طعم.

وهذا الرجل يثير اشمئزازي وتقززي، أي أنني أرفضه، وهذا أمر أصبح شديد الصعوبة، وفوق قدرتي على التحمل، ووضعني في حيرة بالغة لا أدري ماذا أفعل، هل أفر هاربة أم أطلب الطلاق، أم أقتل نفسي؟ فأنا لم أعد قادرة على التحمل، وأعتقد أن أي إنسان يستطيع أن يدرك مشاعري بسهولة ويتعاطف معي إذا تصور طعاماً فاسداً له رائحة غير طيبة، واضطر أن يبتلعه، أي لم يكن لديه الخيار أن يرفض، بل لا مفر من تناوله، أية قسوة، أي ذل أي ألم نفسي قبل الألم الجسدي. وأنا مضطرة للحياة مع هذا الرجل، فالأولاد مازالوا في المرحلة الوسطى، أي في أشد

الاحتـياج لـلأب والأم معـاً، وأنا لا أملك القدرة على الاستقلال بحياتي لأسباب كثيرة، منها عدم وجود أسرتي وقلة مالي الخاص.

وقد تسألني منذ متى وأنا أعاني؟

سأقول لك منذ أول يوم في زواجي.

وبالقطع ستعاود السؤال: ولماذا تزوجته؟

ســأجيبك بأن سلوكه المقزز لم يظهر بوضوح إلا في اليوم الأول لحياتـنا معاً تحت سقف واحد. وقد تتعجب وتقول وهل من المعقول أنك لم تكتشفي ما ينبئ بسوئه في فترة الخطوبة.

ســأجيبك بـالحق إن بعض ملامح سوئه قد بدت في أثناء الخطوبة لكـنها كانـت محـدودة جداً إلى الحد الذي جعلني أعتقد أنه سيتغير إلى الأفضـل، وأنني سأستطيع معالجة الأمر بحكمتي، خاصة أنني كنت أحبه، أو قل إنني كنت معجبة به، أو الحقيقة أنني كنت منبهرة بجوانب أخرى في شخصـيته، جعلتني لا أتفحصه بعناية، أسوأ شيء أن تنبهر بالسطح اللامع دون أن تخْبرُ الباطن الزائف.

وستســألني حـتماً عما يضايقني منه، أو على وجه الدقة ماذا يثير اشمئزازي؟

وسـتعجب إذا قلـت لـك إنها كلمة "أنا" التي لا يكف عن ترديدها عشـرات المرات في اليوم الواحد، أنا الأذكى، أنا الأنجح، أنا الأقوى، أنا الأجمـل، أنـا الأغنى، أنا طرزان، أنا أسد، لا تجلس إليه إلا ويحدثك عن نفسه بغرور وانتفاخ قاتلين، وهذا التضخيم في الذات له متلازمات أخرى، كالأنانـية وتحقير الآخرين، والنرجسية والشعور بالاضطهاد والشك وسوء الظـن، فهو لا يحب إلا نفسه، ويفترض أن الآخرين يجب أن يتسابقوا إلى

خدمــته وإرضـــائه، وهــذا هو ما فرضه على، إذ يجب أن أكون متيقظة ومتنــبهة فـــي كل لحظة ومستعدة للاستجابة الفورية لكل طلباته وفي أي وقــت، حتى ولو كنت مستغرقة في النوم، وعاد متأخراً، فيجب أن أنهض منتفضـــة، فقــد يحــتاج إلى كوب ماء ليشربه، وإذا نمت متأخرة أو كنت مريضـــة فإنه من الواجب علي أن أكون في شرف توديعه إذا غادر البيت فـــي وقت مبكر، ثم علي أن أتحمل نقده اللاذع وعدم رضاه عن أي شيء أفعله أو أقدمه، واعتراضه على طريقة كلامي ومظهري وملبسي وأفكاري، فأنـــا الأقــل دائمـــاً، أنـــا الأتفه، بينما هو العبقري الذي لا يضاهي، هذا بالإضـــافة إلـــى تذكــيره دائماً لي بأنه صاحب فضل علي، وأنه لولاه لما عشــت فـــي هذه البحبوحة المادية التي يجب أن يغبطني عليها كل سيدات الأرض، ولا يخجل من أن يؤكد على ذكورته الشديدة في الفراش، وأن هذا من موجبات امتناني له.

وبالـــرغم من البيت الطيب الذي جاء منه، فإن ألفاظه بذيئة وسبابه مـــتدن، ووضـــعي دائمـــاً في موقع المدانة المتهمة المحاطة بالشك وسوء الظـــن، لـــذا فهو يحاصرني وكأنني في سجن، وهذا في تقديري دليل على عـــدم ثقته بنفسه، وهذا يعني أيضاً أو يفسر سر انتفاخه الكاذب، وهو دائم الشعور باضطهاد الآخرين له، وأنه يستحق أكثر مما وصل إليه لولا الغيرة والحســد والحقد والمؤامرات التي تحاك ضده لخوفهم من عبقريته التي بلا حدود.

وضغط عليّ أبي لكي استمر رغم إشفاقه الواضح، وأخبرتني أمي أنـــه لا توجــد في العائلة حالة طلاق واحدة، وازداد موقفي سوءاً بعد وفاة أمي وتبعها والدي، شعرت بضعفي وقلة حيلتي، وزاد استبداده وابتزازه.

وحيـــن أراجع حياتي معه أجدني قد تحملت كل سخافاته بصبر إلا شـــيئاً واحداً يضيق به صدري، وهو وجهه الذي ينقلب فجأة، فلا ترى منه إلا الازدراء والاســـتخفاف والعـــداوة والعدوانية.. ولقد تصور خاطئاً أن إرضـــائي مادياً وجنسياً يجعلني أتغاضى عن سوء طباعه، إلا أنني أحسد زوجـــة الـــرجل الفقير الذي يحترمها، وأحسد زوجة الرجل المريض الذي يشبعها مودة وتشبعه رحمة، ناهيك عن أنني فقدت الاستجابة الجنسية تماماً رغم تباهيه بقوته الحيوانية.

إننـــي أصبحت دائمة التوتر، تفزعني تليفوناته وأتوقع أنه سيخبرني بمصيبة، يضايقني وجوده، وأشعر بالاختناق، ارتاح كثيراً لسفره وابتعاده، وأنـــا على وشك الانهيار مما قد يؤدي إلى اندفاع جنوني، إذ لم يبق إلا أن أموت أو أطلق أو أجن.

الرحلة الثانية

لـم تكـن هذه هي النهاية.. أي لم أكن ماضية إلى العدم، بل كانت الـبداية لحياة أخرى.. إلا أن لحظاتي الأخيرة في الحياة الدنيا كانت مثيرة للغايـة.. بالـرغم من أن فكرة الموت اختيارياً راودتني منذ عشر سنوات علـى الأقـل إلا أنهـا لم تسيطر علي تماماً إلا حينما باغتني ملك الموت بـزيارته.. فـي ذلك اليوم المتشح بالسواد منذ بدايته استيقظت وكأن جبلاً جاثمـاً فوق صدري.. لم أتحرك من الفراش إلا بعد مرور ثلاث سنوات.. وبلا مبررات شعرت بعدم حب المكان.. وربما لأن ملك الموت كان يحوم حـوله.. جـاءتني الصديقة ببعض الطعام وقليل من الشاي. كانت معدتي منغلقة تماماً أمام حتى رشفة ماء. قالت لّي ستموتين من الجوع.. كان لوقع كلمـة المـوت صدى غريب في أذنيّ لم أعهده من قبل وكأنه تأكيد لقرب النهاية.. قلت لها بلهجة ساخرة تقطر مرارة إنها فرصة لينخفض وزني.. مسـحت فوق رأسي مدعية أنني مازلت جميلة.. بل أنا بشعة يا صديقتي.. أتذكريـن بداية الاكتئاب حينما قابلني صديق في الطريق ولم يتعرف إلي.. ناديته فتعرف على صوتي.. إن صوتي هو الشيء الوحيد المتبقي من آثار الماضـي.. إنه الأثر الوحيد.. التحفة الوحيدة.. هاله منظري، سقط الشعر وسـقطت الأسـنان وانـتفخ الجسد.. ياللأسف.. أين أنا الآن من الزمان الأول.

ضنت عيناي بالدموع فبكت صديقتي فتشاءمت.. مضحك أن نقول إن المتشائم تشاءم أو أصبح متشائماً..

أي لغـــة تحتمل هذه التركيبات السخفية.. لماذا تبكين يا صديقتي.. هـــل بانت على وجهي علامات الموت.. إن للموت علامات.. ملك الموت يرسل اتباعاً للتمهيد لقدومه.

حملت نفسي للحمام.. المرايا تغلف كل الجدران.. رأيت نفسي من الخلـــف ومـــن الأمـــام في آن واحد.. كان الأمام أسوأ من الخلف.. بل يا ســـندريلا القمـــر.. يا من كنت جميلة.. يا أم المرح.. يا روح الابتسامة يا مبعـــث السرور.. يا صديقة ورد مقطر.. يا كل الروائح المثيرة في الدنيا فـــي الإنـــس والجن والحيوان والحشرات.. حتى النباتات كانت تميل شوقاً وتلهفاً لممارسة الحب حين كنت تعبرين بجوارها.

تشـــاءمت للمـــرة الثالـــثة حين لم أجد فرقاً بين وجهي ورأسي من الخلـــف.. كنت كتلة واحدة.. ياه.. من أنا ومن أكون أنا غير أنا.. لا يوجد أثـــر واحد من أنا زمان.. وأنا لا أريد أن أكون.. أكون ماذا أكون؟ وأكون من؟ بل أنا الآن لا أكون.. إنني غير موجودة.. أنا عدم.. أنا لا شيء.. يا ليتني فعلاً أكون لا شيء فهذا أفضل من الشيء الذي تعكسه المرايا من كل جانـــب.. أدركـــت الآن فقـــط أنه لا يوجد مني غير هذا الجسد فقط.. أما روحي فقد مضت ونفسي قد زهقت..

عدت من الحمام كما أنا فلم أقو على رفع يدي إلى وجهي.. جلست على حافة الفراش.. نقر رذاذ المطر على النافذة فتشاءمت للمرة الرابعة.. وكـــأن كائـــناً مـــا يريد أن يدخل المكان عن طريق النافذة.. إنه يخشى أن يطرق الباب فلن يفتح له أحد حيث إن صديقتي قد رحلت.

رن جــرس التلــيفون.. لــم أتحرك.. جاءني صوته دون أن أرفع السماعة.. أراد أن يترك لي رسالة.. قال آسف لأني أريد أن أنهي العلاقة.. لأول مرة أشعر بلدغة ثعبان.. اختطفت السماعة من موضعها .. ألو.. ماذا تــريد.. مــاذا تقول.. جاء الصوت من الجانب الآخر.. آسف.. لكل شيء نهاية..

انزلقــت السماعة من يدي.. لم أهتز إلا ثواني.. الكل باطل.. الكل اقــتات من روحي.. والكل هرب.. إلا رجلاً واحداً لم يهرب إلا بالموت.. كــان نــور عينــي.. كان مثلي حزيناً.. وأحياناً كئيباً.. أعجب خليط من الواقعــية والرومانسية.. وأحبني.. قل إنني كنت ابنته أو صديقته أو حبيبته قــل أي شيء.. ولكنه كان يحبني.. كان حباً عظيماً.. أما أنا فكنت أشعر نحــوه بشــيء يفــوق الحب.. إنه الرجل الوحيد الذي منحني الطمأنينة.. والرجل الوحيد الذي لم يقتت من لحمي.. والرجل الوحيد الذي أعطاني ولم يأخذ مني أما فيما عدا ذلك فالكل باطل.

عادت صديقتي كنت نصف واعية.. إذ لم أكن قادرة على الغضب، ففــي الغضــب يقظة.. لم تغضبني المكالمة التليفونية وإنما أخذت نصف وعيــي وهــذا هــو مــا يستطيعه المكتئب.. وأعادت سماعة التليفون إلى مكانها.. فهمت كل شيء.. قالت لي: في داهية.. كلهم سيئون.. وبالنصف المتبقــي مــن وعيــي ناولتها بعض أشيائي: جنيهين وحجاباً والرباعيات وصــورة لصــاحبها تحمــل إهــداء: إلــى وجه القمر.. وناولتها بدايات مذكراتــي.. أه لو أكملت هذه المذكرات.. آه لو قرأها أحد.. لانهارت دول ولانــتحر زعماء ولسجن وزراء.. لقد اضطررت للسياسة اضطراراً وإلا قطــع الرقــبة.. ففضــلت أن أعيش.. وبعد أن شبعوا رموني.. استنجدت

ولا أستطيع أن أصف كيف أشعر بالتقزز، لكنني أستطيع أن أقول إنه يشابه التقزز الذي قد يشعر به أي إنسان تجاه شيء كريه يؤذي الحواس، إذن هو تقزز جسدي وإن صدر عن رؤية شخص ولا مادة عفنة.

ثم يعقب هذا التقزز النفسي حالة من الغثيان والغثيان هو الشعور الذي يسبق حالة القيء إنه حالة من الاضطراب والتوتر والتحفز تبدأ من الفم وتنتهي عند المعدة، ويصاحبها إعياء وضيق وحيرة ولا فرق بين الغثيان لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضوية فكلاهما يزحف على المعدة مهدداً بقذف محتوياتها إلى الخارج لأسباب نفسية والغثيان لأسباب عضوية، فكلاهما يزحف على المعدة مهدداً بقذف محتوياتها إلى الخارج حين تشارك هي الأخرى في حالة الرفض العام لذلك الشيء أو لذلك الإنسان.

وإذا أردت أن تتعرف على مدى فظاعة هذه الأحاسيس وأن تقف على المعنى الحقيقي من ورائها، فعليك أن تستعيد في ذاكرتك الأحاسيس المناقضة أو المقابلة أي عكسها، مثل انفتاح الشهية والرغبة العارمة، والإقبال بتلهف والاستنشاق المثير اللعاب السخي والانقباضات الرقيقة للمعدة معلنة عن استعدادها للتقبل والاحتواء والاحتضان والاحتفاظ بما يصل إليها، ويصاحب تلك الأحاسيس الجسدية أحاسيس أخرى نفسية، كالسرور والفرحة والحماسة والنشاط والثقة والأمل الواعد بلذة شيقة..

تصور أن شخصاً ما أو طعاما ما يثير لديك كل هذه الأحاسيس والمشاعر الرائعة وشخصاً آخر أو طعاماً آخر يثير لديك كل الأحاسيس والمشاعر السلبية من اشمئزاز وتقزز وغثيان وربما قيء أيضاً. وكما أن هناك طعاماً آخر ساماً فإن هناك أيضاً إنساناً طيباً وإنساناً آخر ساماً،

الحـــب.. أنـــا الحياة.. أنا اللحن.. أنا الرغبة.. أنا النشوة.. أنا الضحكة أنا الإيقاع المريح، أنا الجمر.. أنا.. أنا.. أنا..

وصـــلت إلـــى السور المنخفض.. لامسته بيدي.. ولاح لي الحبل. وضـــعوه الآن حـــول العنق.. لا مفر .. اعتليت السرور ترددت لحظة.. صرخت السيدة المسكينة سقطت في الحفرة وكسر الحبل عنقها.. وسقطت أنا من الشرفة .. وسبحت في الهواء.. استغرق الأمر بضع ثوان.. اصطدم رأســـي بـــالأرض.. كان هذا آخر ألم بشري أعهده.. وخرجت الروح من الجســـد.. نظـــرت إلـــى الجسد وقد غرق في بركة من الدماء.. جاء من يستطلع الأمر..

وصرخ أحدهم: رجل قد انتحر فابتسمت.. وجاء آخر كان يعرفني فلـــم يعرفني.. فابتسمت مرة ثانية.. نعم إن الروح تبتسم.. ولم أحزن هذه المرة لأن الذين كانوا يعرفونني لم يتعرفوا إلي.. فالأمر لم يعد مهماً.. لقد انتهت حكايتي مع الحياة.. وبدأت حكاية أخرى مع العالم الآخر.

وبالـــرغم مـــن أن صلتي بالجسد قد انقطعت إلا أنني فرحت أنهم سينقلون الجسد إلى الوطن سأدفن تحت تراب بلدي.. كم أحب بلدي.. وكم أحب ترابها أنا منها وهي مني.. أنا أحمل ملامحها هي وتحمل ملامحي..

مـــرحى.. مـــرحى.. لقد عدت.. هذا وطني.. وظللت محلقة فوق الجســـد.. وهالني زملائي الذين يبكون ويولون.. ولأنني في مقام يسمح لي الآن بـــأن أطلـــع علـــى ما هو مخفي في الصدور فإنني عرفت أنه بكاء زائف.. وعجبت للمبالغة في إظهار الحزن.. لعله كان الشعور بالذنب لأن أحـــداً مـــنهم لم يواسني حتى بالكلمة أثناء محنتي.. لعلهم يريدون الآن أن يظهروا في أجهزة الإعلام وأن يعرف عنهم الوفاء وهم في الحقيقة أبعد ما

يكونـــون عن الوفاء.. إنهم حقاً ممثلون بارعون. ودفنت.. وانتهت علاقتي بالجســـد.. وصعدت إلى مكان لا أعرفه.. وسيطر علي إحساس واحد وهو الســـلام.. وهـــو لـــيس كسلام الأرض، فهو سلام مطلق.. سلام من أجل السلام.. لا قلق ولا خوف.. فأدركت أن جوهر المرحلة القادمة هو السلام، وجاءني ملكان.. بدأ بالسلام.. سلام الله عليك.. فرددت سلام الله عليكما.

قالا: نحن جئنا لمراجعة الحساب.

فأطرقت خجلاً: قلت: أعرف أن ذنوبي كثيرة.

فابتســـما وقـــال: هكذا كنت تظنين.. رغم أنك تعرفين أن الله يغفر الذنوب جميعاً.

فقلت: وليست لي حسنات.

فابتســـما فـــوق ابتسامتهما الدائمة وقالا: بل حسناتك تفوق سيئاتك. فلقت كيف؟

قـــالا: لأنـــك كنت تحبين كل الناس.. لم تكرهي أحداً.. لم تحملي ضغينة لأحد.. وحاولت أن تسعدي كل الناس

قلت: وهل هذا يكفي؟ قالا: بل هذا هو كل شيء.

تجرأت حينئذ وطالعتهما فملأني نور.

وتجولـــت فـــي نفـــس المكـــان على نفس المستوى فرأيت آخرين يحاســـبون.. رأيت رجلاً يأكل لحم أخيه ميتاً فعرفت أنه المغتاب.. ورأيت آخـــر يبـــتلع نـــاراً تكوي أمعاءه فعرفت أنه الذي أكل مال اليتيم.. فزعت وهرعـــت إلـــى مكـــان آخـــر.. فرأيت قوماً فرحين مستبشرين تلوح من وجوههـــم نضـــرة النعـــيم فعرفت أنهم الشهداء فأردت أن أنضم إليهم فلم

أستطع لأنهم كانوا في مقام أعلى. فعرجت إلى مكان آخر فصادفتني امرأة تكاد ترقص من شدة الفرح بعد أن وعدها الملكان ببيت في الجنة.. فسألت مـــاذا فعلت فعرفت أنها أطعمت قطة جائعة.. وكان بالقرب منها رجل في مثل فرحتها فعرفت أنه الذي سقي كلباً عطشاً.. اقتربت منهما فكانا كملكين وليسا من البشر من شدة رقتهما ومن قدر النور الذي يحيط بهما.

وتذكـــرت صديقي الذي أحبني بإخلاص وأحببته.. بحثت عنه فقد ســبقني إلـــى هـــذا المكان منذ سنوات.. فأشاروا إلى مقاعد يجلس عليها الصــــادقون.. حقـــاً.. كان صادقاً.. وأيضاً كان حنوناً.. قابلته.. فرح بي.. وفرحـــت به.. عرفت أن الإنسان في الحياة الآخرة يلتقي بمن يحب ويظل قريباً منه.

وأردت أن أنتقل إلى مستوى أعلى فقالوا لي بل ستبقين هنا.. سألت إلـــى متى فقالوا لي حتى تقوم القيامة.. وحانت مني التفاته صوب الأرض فهتفت هيا اصعدوا فأنا متشوقة للجنة.



الثمرة الناضجة

إذا نضــجت ثمــرة تسقط من عليائها إذ لم يعد مبرر لبقائها وتفقد الســاق الرغــبة فــي إمدادها بعناصر الحياة فغيرها أولى، أو تشيخ على عودهــا بعــد أن يمضي أوانها وفي النهاية تسقط أيضاً معطوبة دون فائدة فللكائــنات الحــية أعمار، والعمر مراحل والأيام لا تمهل والزمن لا يعود للوراء..

وقــد يكون من حظ ثمرة أن تشتهيها العيون وتتسابق نحوها الأيدي فــيقطفها المحظــوظ فتحظى بلذة أن تؤكل ويحظى بلذة ابتلاعها وتتحقق دورة الحياة بين الآكل والمأكول.

ولا أحــد يعرف سر ثمرة نضجت على عودها ولم تمتد إليها يد.. وقــد يكــون هذا مفهوماً إذا لم تكن رأتها عين ولم تشتهها نفس، ولكن ما الحال إذا كانت قد أزاغت الأبصار ولوعت النفوس أهو قدر ثمرة معينة ألا تؤكــل وأن تسقط أو تشيخ.. عجيب أمر هذه الحياة فهناك من الأسرار ما يستعصــي علــى الكشف، وليس كل ما هو منطقي قابل للفرض والتحقق، والسعي الحثيث قد لا يدني الإنسان من الهدف ولذا يصاب إنسان ما أحياناً بالحــيرة ثم بالإحباط ثم باليأس فيتوقف عن الحركة ولا يفعل شيئاً منتظراً الأقدار أن تصرف أموره كما تشاء متقبلاً مصيره باستسلام وإن أسف على ذلك.

إن تتأخر فتاة معطلة من الجمال عن الزواج قليلاً أو كثيراً فهذا أمر معــتاد.. أمــا أن تبقى فتاة فائقة الجمال على عودها دون أن تمتد إليها يد فهــذا أمــر غير مألوف أو هو أمر ضد الطبيعة أو اتجاه الحركة الطبيعية للأشــياء فالأصل في الفطرة الإنسانية هو حب الجمال ولولا ذلك لما رفع الإنســان عينــيه صوب السماء ليملأ نفسه بالحسن الأخاذ لكل ما أبدع الله فيــتأثر ويهــتز وينتشي وينشد ثم يحاكي الجمال في كل ما يقول وكل ما يفعل.. ثم يعلو إلى ما فوق السماء ويقترب من النور الإلهي بعقله لا بعينه فيؤخذ ويذهل ويخشع ويخر ساجداً ولا يقوى على ما هو أبعد من ذلك لأنه يعرف أنه غير مؤهل لمطالعة الجمال المطلق وأن ذلك فوق طاقته إذ يكفيه الأثر وليس المصدر حتى يؤذن له.

ولأن الأصل هو الجمال فإن الله أنعم على الإنسان باستقبال الجمال بكــل حواسه وأنعم عليه بالتذوق الجمالي على كل المستويات جسداً ونفساً وروحاً.. الجسد يتلذذ والنفس تتلذذ والروح تتلذذ وأنعم الله على الإنسان أن يكون هو ذاته صانعاً للجمال مبدعاً للفن في السلوك وفي المظهر. ثم خص بعــض عباده بالجمال وجعله من الخارج والداخل.. فتطالع إنساناً فيذهلك سحر وجهه وتطالع أعماق إنسان فيذهلك سحر روحه..

متعة الحياة أن تستمتع بالجمال.

وفخر الحياة أن تصنع الجمال.

وزهو الحياة أن تكون جميلاً.

هــذه الفــتاة لا توجــد من هي أجمل منها ولكنها كالثمرة المحرمة تذوب من أجلها القلوب وتتحرق النفوس وتتعذب الأبدان وتتلوى الأرواح، ولكن لا أحد يتجرأ على أن يمد يده.

ولـدت جمـيلة.. انبهر الجميع بحسنها وتشكلت شخصيتها على أن تـبحلق فـيها العيون وأن تشهق الصدور اعتادت المديح والتدليل شعرت بالتمـيز والـتفوق.. لـم تجـد صعوبة في أن تحظى بالاهتمام وأن تنعم بالترحيب نصبوها الأميرة على شقيقاتها وقريباتها وجيرانها وزميلاتها بل على كل فتيات الدنيا.

وحقاً إذا نظرت إلى وجهها وجدت جمالاً غير معتاد ومن الصعب وصفه.. فوصف أنها أجمل فتاة هو وصف يعني المقارنة مع غيرها وهذا صعب.. إذن هي مسألة أن تشعر بها فحسب دون مقارنة مع آخريات حتى إن استعنت برصيدك من صور الجميلات التي تحتفظ بها في ذاكرتك.

ولهـذا فمع هذه الفتاة بالذات فأنت لا تملك إلا وصف شعورك فهو جمـال فـيه بساطة وفيه ألفة.. وفيه فرحة.. أي أنك تشعر بالسرور البالغ حين تراه.. وتشعر بألفة وكأنه ملكك أنت شخصياً وتشعر بالاقتراب وكأن بينكما صداقة وتشعر بمودته، حقاً هناك جمال ودود وهو ما ينبع من نفس ودود وهـو خلو من أي شر وأي عنفٌ وأي عدوان أو أي قسوة. جمال لا يصـدك ولا يحرجك ولاً ينهال عليك بعتاب أو لوم أو نقد وإنما يرحب بك بسـمو ويحـترمك بعفة ويفرض عليك أن تتعامل معه بنفس درجة السمو والاحـترام والعفة وكأنك تتعامل مع شيء مقدس فتتوارى غرائزك خجلاً وتتراجع نوازعك السفلية دون ندم أو معاناة.

وكان الأب والأم من الذكاء بحيث يرسّخان فيها جبلاً من القيم على رأسـه شجاعة الصدق.. وكان غريباً هذا الوعي من الوالدين أن يدركا أن أحوج ما تحتاج إليه ابنتهما الجميلة هو شجاعة الصدق أن تكون نفسها. أن تكـون واضـحة.. أن تكون شفافة.. أن تكون على طبيعتها ألا تتكلف ألا

تــزوق.. ألا تلــف وتــدور حــول المعنى.. ألا تخفي حقيقة.. ألا تخاف الحق.

ولكن شجاعة الصدق تحتاج إلى شيء آخر شديد الأهمية وهو ذكاء العبارة ورقة التعبير وأدب المواجهة وكيفية توصيل الرسائل الصعبة دون إحراج ودون جرح.

لقــد توقع الأب والأم أن ابنتهما الجميلة ستواجه صنوفاً متعددة من الرجال منهم من تنقصه الكياسة ومنهم من يفتقد اللباقة ومنهم من تلح عليه رغــباته للتحقق الفوري، ومنهم يساوم ويقايض ويبتز ولذا أكسبوها مقدرة إيقاف كل شخص أبعد قليلاً من الخط الأحمر فيقرر هو ألا يتجاوزه وبذلك لا تخسر كل الناس. أرادوا لها أن تحتفظ بصداقة كل الناس أو على الأقل ألا يوجــد لها أعداء كثيرون لأنه من المعروف عن الذين يتعرضون للصد العنــيف. والزجر الشديد وحين يمنع عنهم التهام الثمرة فإنهم يتحولون إلى أعــداء. أراد الوالــدان أن يجنــبا ابنتهما هذه الصعاب فأكسبوها شجاعة الصــدق مــع رقــة الصد ولهذا وقف جميع الرجال الذين اشتهوها خلف الخــط الأحمــر بقلــيل وبإرادتهم وعن رضا ثم حولوا علاقتهم معها إلى صداقة!!

ووعـــي الوالدان، أهمية العلم والثقافة وربما اكتشفا لديها الاستعداد لذلــك فمهــدا لهــا الطريق حتى تألقت فازدادت جمالاً وإن كانت في قمة الجمــال ولــذا فالإضــافة لم تكن كمية وإن كانت وجهاً آخر أو بعداً آخر للجمـــال أي تم ترصيع تاجها بجوهرة أخرى ثمينة وصارت نجمة المحافل الثقافية والعلمية وفتحت لها الأبواب، وكان جمالها هو المقدمة ولكنها كانت تــتقدم كالقطــار بفضل ذكائها وعطائها وعلمها وثقافتها ولذا فإنها أبداً لم

تصـــلح للحب الرخيص أو للحب مدفوع الثمن وبالتالي لا يمكن أن نرجع نجاحها إلى جمال وجهها وإنما إلى جمال عقلها.

نضـــجت الثمرة تماماً وتكاثف الجمهور العطشان والجوعان تحت الشجرة ولكنهم اكتفوا بالتطلع دون أن يمد أحدهم يده وهم كُثْر..

وانتظرت .. وانتظرت..

ربما لم تكن تسعى..

ربما كانت تتأنى لنجم غير موجود..

ربما أذهل الناس جمالها فاكتفوا بأن يتملوا نور القمر دون محاولة الوصول إليه.

ربما خاف بعض الناس هذا الجمال المذهل.

ربما كانت أعلى من أن يحاول أحد الصعود حيث تقبع الثمرة على أعلى فرع.

ربمـــا من اكتمال جمالها تعطلتّ رغبات الرجال.. تلك الرغبة التي تلح على الرجل فيتقدم نحو الأنثى.

ربما حاول بعضهم في البداية أن يأكلها حراماً وحينما وجد أن ذلك مستحيلاً أصبح ينظر إليها من منظور آخر.

ربمـــا خشي من يفترسونها أن يفسدوا هذا الإحساس الرائع بعلاقة زواج وهي علاقة قد تُفسد أحياناً السامي من المشاعر لقد كانت في عقول بعـــض الرجال كصورة أقرب للخيال أو كلحن سماوي أبعد من أن يردده الإنسان بحنجرته.

ولهـذا لـم تـتزوج واقتربنا من السن الحرجة وتعديناها تزوجت صغيرتان دونها في السن ودونها في الجمال وبقيت هي.

ولكـنها لم تقلق ظل رأسها مرفوعاً وأنفها شامخاً.. لم تتهاون.. لم تـتخل عـن السـياج الرقـيق التي أحاطت به نفسها لم تبتذل وإنما ظلت الأمـيرة.. ظلت القمر في عليائه، ظلت الصورة التي لا يستطيع خيال أن يرسـمها، ظلـت اللحـن الذي لا يأتي إلا من السماء وكلما صمدت زاد الإعجاب بها وزاد الإحجام عنها.

ولكن الطبيعة تعلمنا دروساً قاسية وتحذرنا بشدة فالثمرة التي تنضج قد تسقط أو تشيخ على عودها.

أفراح العيد

خلق الله الفرح ليحب الإنسان الحياة.. فحب الحياة والفرح قرينان.. وأنت في حالة الفرح يخف وزنك فتطير لتحضن الدنيا كلها بعينيك وتراها غاية في الحسن تسر الناظرين وتفعم قلب العاشقين له.. ما أجمل الحياة في ظل الفرح.. وما أمتع الدنيا في ظل العشق.. والمتعة تكون للروح والجسد معـــاً.. ترقص الروح وينتشي الجسد.. تسعد الروح بأنها تسكن ذلك الجسد ويســعد الجســد لأنــه وعــاء لهذه الروح.. وهذه هي الحياة.. وما أجمل الحــياة.. أنا حي معناه أنني قادر على الفرح.. وأنا فرح معناها أنني قادر على العشق.

أنت في هذه الحالة تحب الأرض والسماء معاً.. أي تحب ترابيتك.. تحــب الطين الذي صنعت منه.. تحب جسدك.. ماديتك.. بشريتك.. تحب الصــورة التــي خلق الله الإنسان عليها.. تحب إبداع الله في تخليقه للكيان المــادي للإنســان.. تحــب تلك الأحاسيس التي تنتاب جسدك وتحقق لك متعة.. تحن للطعام والماء والنوم والجنس.. وتصل إلى ذروة الرضا تحت ضــغط من نوازعك الترابية.. ولا يتحقق ذلك إلا من خلال إنسان آخر أو مــع إنسان آخر. ترابيتك وترابيتها.. هذه هي الصياغة الإلهية.. خلق الله الدوافع، وخلق سلبيات هذه الدوافع وخلق المتعة التي تتحقق من تلبية الدافع ومــزجها بالفــرحة.. المــتعة فرحة.. والفرح توقع للمتعة.. الفرحة هي

ممارسة الحياة.. وهي أيضاً ممارسة الأمل.. وممارسة الأمل معناها السعي لتحقيق غاية من أجل إرضاء دافع.. ولهذا فالحياة ذوق وتذوق.. وفي هذا يتفرد الإنسان.. وذلك لأن لكل إنسان تاريخه الخاص.. التاريخ العام هو ما يتفق فيه كل البشر.. أما التاريخ الخاص فهو الطعم والرائحة والملمس والفكرة والمعنى والمضمون والذاكرة التي خلفتها الأيام من خلال أحداث بعينها وقعت لإنسان بعينه.. ولهذا فنحن نختلف فيما نحب ونعشق ونهوى ونتمنى.. ومن أجل هذا تنوعت الإنسانية رغم التوحد في الترابية.

ورغم إتفاقنا على أن القمر هو أجمل الوجوه حين يكتمل بدراً إلا أن كلاً منا يحب وجهاً مختلفاً.. يقول عنه إنه مثل القمر.. ورغم أن القمر المرجع واحد في السماء إلا أن قمري يختلف عن قمرك.. هذا هو حبنا للأرض.. الترابية.. أما حبنا للسماء فهو ينبع من الروح.. فالسماء لها تكوين مختلف مثل أن لها معنى مختلفاً.. ومادة الروح الوحيدة القادرة على تذوق السماء.. السماء لها مذاق يختلف عن مذاق الجسد.. ونشوة الروح غير نشوة الجسد.. فالدوافع تختلف.. والحاجات تختلف.. ومُرضيات الحاجات تختلف ولذة الذروة تختلف..

فلا طعام ولا شراب ولا نوم ولا جنس.. ثمة دوافع أخرى تخلق احتياجات معينة وتنزع إلى تلبية خاصة تتحقق منها تلك النشوة المختلفة.. حاجات الروح هي الإيمان والسلام والأمان.. وتلبية هذه الحاجات لا تتحقق إلا من خلال حب الله وحب الناس.. إن لحظة الحب هي الذروة.. لحظة أن تقول لله أنا أحبك.. أنا أعبدك أنا أعشقك.. وفي هذه الحالة تكون قادراً على رؤية نور الله في قلبك، أو حسنة فيتجلى لكل جوارحك فتهتف سبحان الله.

ولحظـــة الحب أيضاً مع إنسان آخر هي الذروة.. وأن تحب إنساناً آخـــر معـــناها أنك تؤمن بـه.. أي ترعى وحدك جمال روحه.. فالروح لا تحب إلا كل جميل.. والجمال الذي تعشقه الروح هو جمال الخير.. فالخير يـــتربع على عرش الجمال الذي تهواه الروح.. وما أروع أن تؤمن بإنسان ومـــا أروع أن يؤمن بك إنسان آخر.. فأنت ترى فيه الخير وهو يرى فيك الخير.

والفـــرحة هـــي غايـــة الســـرور وقمة الرضا وخلقها الله لسعادة الإنســـان.. وخلـــق لها مناسبات.. يا سبحان الله.. خلق الله أوقاتاً يدعو الله فـــيها الإنســـان ليفرح.. إنها دعوة للفرح.. ولكل دعوة مناسبة.. والمناسبة هي العيد.

وحين يدعوك الله للفرح فهذا معناه أننا نستحق أن نفرح أي تستحق أن نســـر وأن نسعد، إنها مكافأة ربانية، مكافأة من الله للإنسان، والمكافآت تكون لمن يستحق ولمن هو جدير بحب الله.. وتصبح المكافآت الحقيقية هنا اســـتحقاقنا لحـــب الله وأننا جديرون بهذا الحب.. هذا هو المعنى الأعمق للعـــيد: الله في هذه المناسبة يقول للإنسان أنا أحبك.. وكأن الله اخترع هذه المناسبة لنفسه لكي يعطي لنفسه الفرصة لكي يقول للإنسان أنا أحبك.

ويكـــون العـــيد أيضـــاً مناسبة لكي يقول إنسان إلى إنسان آخر أنا أحـــبك.. ولهذا يتزاور الناس في العيد.. ويقول الإنسان لإنسان آخر: كل ســـنة وأنـــت طيب.. ومعناها أنني أحبك أو أنني أقدرك أو أنني احترمك ولهذا أتمنى لك أن تكون في العام القادم في حالة طيبة لأنك تستحق ذلك.. لأن وجودك في الحياة مهم.. وربما وجودك في حياتي الشخصية مهم.. أو لأنـــك أهـــم إنســـان عـــندي.. وهذا يعني الحب.. وفي العيد أيضاً نتبادل

الهدايـــا.. والهديـــة هـــي رسالة.. هي رسالة معنوية قبل أن تكون رسالة ماديـــة.. ما أمتع أن تتلقى هدية.. والهدية معناها أنك شيء خاص بالنسبة لي.

وفي العيد نشتري ملابس جديدة.. وذلك لأنني أريد أن أبدو لعينيك أجمل وأزهى وأبهى.. والجديد له نضارة وله رونق وذلك إيحاء بأن الحياة تتجدد.. وأن الشباب دائم.. وأن الحيوية باقية.. حيوية الروح قبل الجسد.. ومـــا حـــيوية الجســـد إلا فيض من حيوية الروح.. وكل إنسان على وجه الأرض يسعد بالملابس الجديدة.. وكأنه هو ذاته يصبح جديداً.. كم أود أو أظـــل أجمل الخلق في عينيك.. وفي العيد نأكل الحلوى.. حلوى خاصة لا تكـــون إلا فـــي العيد.. وبعيداً عن العيد لا يكون لها طعم إذ لا يكون لها معنى.. فالمعنى تكتسبه من العيد ذاته.

فالعيد مظاهر ومصاحبات وتداعيات ومن شدة الفرحة فإننا نحرص علـــى هـــذه الارتباطات. وكأننا نتشبث بكل ما يؤكد لنا أننا في العيد فنحن نحـــتاج بشدة لأن نفرح.. الفرح يزيل تلال الهموم التي تراكمت منذ العيد الماضـــي.. العيد تطهُّر للروح والجسد.. تطهُّر لكل الإنسان.. تطهر لكل الـــناس.. وفـــي العيد نشدو بأغاني خاصة.. باقية منذ زمن بعيد.. أغاني الزمن القديم أجمل من أغاني الزمن الحاضر وذلك لأنها تثير لدينا أحاسيس الفرح الأول..

والفـــرح الأول هـــو الفـــرح البريء والفرح الخالص وهو منتهى الفرح.. حين كنا أطفالاً فإن أغاني العيد تجعلك تشم من جديد رائحة الجلد الجديـــد للحذاء الجديد الذي نمت محتضناً إياه ليلة العيد.. وإذا أغاني العيد تجعلـــك تستعيد أرق النوم ليلة العيد تشوقاً لصباح العيد.. وإذا أغاني العيد

تجعلك تستعيد قمة فرح الاستيقاظ فجر العيد بعد نوم قليل وأنت تمضي إلى الصـــلاة في رفقة الأحبَّاء صغاراً وكباراً.. وإذا أغاني العيد تجعلك تستعيد رنيـــن الـــنقود وملمسها والتي انتفخ بها جيبك وقدرتك على أن تشتري ما تحب وما تشتهي وما كنت غير قادر على شرائه في أي وقت مضى.. وإذا أغانـــي العيد تجعلك تسترجع متعة حرية اللعب والانطلاق بلا حدود ولأي وقـــت. وإذا أغانـــي العيد تجعلك مستمتعاً بشعور يقيني بأنك في هذا اليوم بـــالذات لـــن تتلقى أي عقاب.. إنه قمة التحرر من الخوف.. لا عقاب في العيد.. ولا خوف في العيد.. العيد أمان واطمئنان .. العيد يؤكد حب الكبار لـــنا. وأغاني العيد تشد قلبك إلى ذلك الوجه الجميل الذي أحببته من بعيد، وخلت أنه هو الآخر يحبك.. ويجيء العيد فرصة للرجوع إلى ذكرى حب غامض محاط بأسرار لم تفض بها بعد.. عالم سحري.. ومشاعر مبهمة.. وامـــتلاك لكل الكيان.. وتخيل المحبوب على أنه ملاك منزل من السماء.. والغريـــب أن ذلك المحبوب لم يغادر الذاكرة بعد طوال هذه السنين بالرغم من أنك لم تتبادل معه كلمة واحدة.

أغانـــي العيد القديمة هي التي تأذن بقدوم العيد حيث يتردد أن الليلة عيد.

أصل القسوة

خـــرج مـــن سرادق العزاء إلى المطار مباشرة.. نام فور صعوده الطائـــرة.. داهمه كابوس بأن أمه دفنت حية واختنقت داخل قبرها.. صحا علـــى الوجـــه الجميل للمضيفة وهي تقترب منه فتبخر الضيق الذي خلفه الكـــابوس.. وكالمعتاد لم تحرك ذرة من جسده وإن بعثت في نفسه السكينة التي افتقدها بسبب موت أمه المفاجئ.. اهتزت الطائرة بعنف واعتذر القائد بسبب المطبات الهوائية.. دعته المضيفة إلى إحكام ربط الحزام وعرضت علـــيه طعاماً فرفض.. وطلب كوباً من الشاي.. لاحظت بذكاء أنثوي فائق أنها لم تثره فغضبت وأصرت أن تحرك المياه الراكدة.. مالت برأسها أكثر وهي تضع أمامه الشاي مما يتيح له فرصة أن يشتم عطرها.. كانت شديدة الـــثقة بهـــذا العطر، خاصة مع الرجال المتحفظين.. لم تلحظ أثراً لفعلتها فاستمرت في الوقوف بجانبه وهو يشرب الشاي.. وسألت الأسئلة المعتادة فاخبرها بأنه في رحلة عمل قصيرة.

وفـــي ثوان أخبرته بكل شيء عن نفسها، لاحظت استرخاء بعض عضلات وجهه المتجمدة.. وكان فعلاً قد شعر بالراحة لحديثها.. لم يفتها أن تلحـــظ خلـــو أصابعه من خاتم الزواج رغم عمره الذي يبدو وكأنه تعدى الأربعين. فقفزت في وجهه كنمرة متوثبة بسؤالها مما اضطره لأن يفصح لها بأنه غير متزوج، فشعرت بسرور عميق لم تفلح عيناها في إخفائه مما

سهل له قراءة مشاعرها وعجب من أمرها.. ولم يكن صعباً عليها بعد ذلك أن تتعرف على اسمه من قائمة ركاب الطائرة وهي تضمر شيئاً في صدرها، اعتذر القائد مرة ثانية عن صعوبة الهبوط في المطار لكثافة الضباب الذي امتد من السماء إلى ما فوق الأرض بقليل وحجبها تماماً عن أن تراها أي عين متشوقة.

وفي الطريق إلى الفندق كانت الأمطار تهطل بغزارة واللون الرمادي الغامق يغطي المدينة مما يبعث على الكآبة فتذكر أمه التي ماتت لتوها وإن لم يتألم.

وفي المساء كان الاجتماع الأول وحقق انتصاراً وعقد صفقة مهمة، هزه النجاح فتحركت رغبته فذهب لتوه إلى مكان يعرفه ولا يخيّب رجاءه في إسعاده ولكن قد نسى أمه تماماً وانمحت من ذاكرته صورة المضيفة الجميلة.. بمجرد أن استقر على مائدة تحتل مكاناً بارزاً حتى انضم إليه شاب وسيم تجاذب معه حديثاً في مثل هذه الظروف، وانصرفا معاً إلى الفندق.

وأصبح عليهما النهار، ونهض الشاب قبله واستأذنه في الانصراف، فمد له يده بالمال الذي طلبه. وحين فرغ من حمامه اكتشف سرقة ساعته الثمينة فقرر أن يذهب إلى نفس المكان ليستردها حتى وإن لجأ إلى الشرطة. كان الصباح قائماً وبارداً.. وحقق توفيقاً أكثر في الاجتماع الثاني.. عاد إلى الفندق في وقت متأخر، لمح الشاب في البهو فاندفع ناحيته ليقبض على رقبته.. ابتسم الشاب وأخرج الساعة من جيبه متعللاً بأنه أخذها عن طريق الخطأ.. كانت له نصف شهية في اصطحابه إلى غرفته فجلسا في البار.

وأخـــيراً صعدا.. وفي الصباح اكتشف مرة ثانية اختفاء الساعة بعد أن انصـــرف الشاب فعجب وابتسم.. وبينما هو يوقع على فاتورة الحساب شعر بالشاب من خلفه.. ربما اشتم رائحة.. وبينما هو يناوله الساعة انفجرا فـــي الضحك بصوت توزع في أرجاء البهو مما لفت كل الأنظار.. وأصر الشاب على توديعه حتى المطار.. احتضنه وقبله وانصرف.. ولكنه استدار وناداه وأعطاه الساعة هدية له.

وفـــي رحلـــة العودة نام طوال الوقت.. وحلم بأمه وهي في ثياب مضـــيفة الطائـــرة.. ثم وهي تغازله فتقزز وحين استيقظ تذكر تذكر وجه المضيفة الجميلة التي رافقته في رحلة الذهاب وأيقن أنها تشبه أمه إلى حد كبـــير فكرهها مثلما كره كل شيء يمت بالصلة لأمه رغم أنه افتقدها بعد موتها. ولأول مرة يسأل نفسه هل أحببتها أم كرهتها.. وأجاب بحزم إنه لم يحـــبها ولو لحظة في حياته.. واستعاد في رأسه شريط الذكريات الأسود.. وحاولـــت الصـــور أن تفلت منه فتشبث بها ليكرهها أكثر وأكثر.. هاهي أمامه وعمه يقبلها بحرارة.. ثم وهي في الفراش مع صديق لها.. ثم وهي تغيب عنه ثلاث سنوات قضتها في السجن.. ولكنه لا ينكر أنها أحبته بشدة وأغدقـــت عليه.. لم تتم بعيدا عنه إلافي حالتين: حين دخلت السجن وحين مرضـــت بشدة فاضطرت لدخول المستشفى.. وأوضح الصور التي عبرت رأســـه وأشـــعلتها كانت صورتها وهي تضربه بقسوة حين سرق قلماً من زميله في المدرسة.

أمـــا في الصورة الثانية التي كادت تفتك برأسه فهي صورتها وهي تضـــربه بجـــنون إلى حد الموت حين ضبطته مع صديق له في الفراش.. ومـــن يومها فرضت عليه رقابة صارمة.. ولكنه كان يستطيع الإفلات في

أحيان غير قليلة ليمارس الشيء الوحيد الذي أحبه في حياته وهو أن يكون فـــي صحبة شاب قوي ووسيم. لم يستطيع في حياته أن يقترب من امرأة.. كانت كل امرأة هي أمه، ففقد رغبته في أي امرأة. وخاف من كل الرجال وغـــار مـــنهم لأنهـــم نافسوه في حب أمه.. فاستسلم لكل الرجال ليتفادى عدوانهـــم.. أراد أن يكـــون مثل أمه في هوسها بالرجال.. وانتهى الشريط بصـــورة أخـــيرة وهـــو يـــنزلها إلى قبرها.. واختلطت لديه كل المشاعر متضـــاربة ومتناقضة.. لم يتفوق شعور على الآخر ولم ينتصر إحساس ما أو يتمـــيز لكـــي يســـتطيع أن يحـــدده.. وإنما كانت فوضى في المشاعر واضـــطراباً فـــي الأحاســـيس.. وعجـــب لهذا المزيج الغريب من الحب والكراهية، والود والبغض، والقبول والاشمئزاز، والاستحسان والنفور..

وفـــي الـــنهاية شعر بتأنيب الضمير لأنه تذكر أنه تمنى موتها في أحـــيان كثـــيرة.. ثم غادر المدفن ليأكل بشهية ويستحم ويلتقي بصديق لقاء تعمده في هذا الوقت بالذات نكاية في أمه وليكون أجمل وداع لها.

ثـــم ذهب إلى السرادق ليتقبل العزاء ثم اتجه للمطار ليلتقي بالوجه الجمـــيل للمضيفة التي بعثت في نفسه السكينة رغم أنها تشبه أمه إلى حد كبـــير.. نســـيها أســـبوعين ثم عاد وتذكرها.. بل شعر بحنين لأن يراها.. مجـــرد أن يراها لا أكثر.. هل يكون قد شفي فجأة من مرضه!! هكذا سأل نفســـه.. ثـــم أجاب على الفور بأنه مازال يشعر بالنفور من أي امرأة إذا تصورها في إطار علاقة عاطفية.. ومازال هوسه بنفس جنسه.

فشلت كل المحاولات غير الجادة لكي يراها، ولكنها هي التي سعت إليه. وشاركها في الاندهاش لتلك المصادفة رغم أنه كان يعلم أنها مصادفة متعمدة ومرتبة..

وســرعان مـــا ألحقها بالعمل عنده لكي تتاح له فرصة أرحب لكي يـــراها.. وهيأ الفرص العديدة لأن يراها لساعات طويلة ليستمتعا بمفردهما بالأحاديث العذبة ولكنها فشلت في أن تدفعه لما هو أكثر من ذلك.. وعجب كل من يعرفه لذلك الاهتمام غير المتوقع بامرأة.. ولم يجرؤ أحد أن يفضي لها بحقيقة أمره وتصوروا معجزة على وشك الوقوع..

وفـــي مـــرة رآهـــا تتبسط في الحديث مع أحد الشبان ففصله من العمل.. وفي مناسبة أخرى سمعها تبدي إعجاباً باجتهاد شاب ألحق بالعمل ففصـــله.. وكان ذلك هو شأنه في التعامل مع موظفيه.. كان قلبه أغلظ من حجـــر.. وما كره في حياته إلا رجلاً يحاول أن يتفوق عليه.. وما كره في حياته إلا امرأة تحب رجلاً.. في هذه الأحوال كانت تتملكه قسوة تجعله لا يتورع عن سحق ذلك الرجل أو تلك المرأة.

وفـــي لـــيلة مـــن ليالي الربيع كانت السماء صافية أكثر مما ينبغي توحـــي بأنه لن يكون هناك أي كدر في هذه الليلة، وكانت النسمات مشبعة برائحة الياسمين التي تبعث الهدوء في النفوس والأجساد بمجرد استقرارها فـــي الصـــدور، وتوسطت درجة حرارة الجو فاستحالت برودة الشتاء إلى دفء ربيعي يبعث على السرور..

أمـــا هـــو فقد استند بكل ظهره إلى شجرة عجوز ومالت هي عليه تهمـــس رغـــم خلو المكان البديع من البشر. وفجأة وبدون ترتيب مسبق، وبدافـــع مـــن الظمأ الذي اشتد، انقضت على شفتيه فبهت وسقط منه قلبه وارتعد كله وأثلجت شفتاه، فانصرفت عنه وقد فهمت كل شيء.. واستحال حـــبها له إلـــى شفقة وازدادت رقة معه ولكن بجسد بارد جعل رقتها تبدو كعلاج لمريض ميئوس من شفائه وقد اقترب من الموت.

تنبهـت كل حواسه لمراقبتها.. كان على يقين من أنها ستبحث عن رجـل آخـر.. رجل حقيقي من وجهة نظرها.. وكأن معاشرة النساء هي الدلـيل الأوحد للرجولة.. وترهقنا النساء بعقد المقارنات والخيانة وتحطيم الأفـئدة. لعـنة الله علـى كـل نساء الأرض.. ولعنة الله على كل رجل يخـون رجـلاً آخـر مع امرأته.. وتعساً لكل رجل تذله امرأة وتفسد كل حـياته.. والمـوت هـو العقاب العادل لكل خائن وكل خائنة.. وجبان من لا ينتقم.. وأنا لست جباناً.. إذا خانتني فسأقتل كل نساء الأرض وكل رجال الأرض

أصابه أرق عضال.. وفي الأحيان القليلة التي كان ينامها كان يرى أمه وهي تصفعه وتبصق على وجهه ومعها رجل يركله في بطنه ثم يتأبط ذراعها ويمضيان معاً.

وأخيراً لمحها تركب السيارة مع شاب يعمل عنده.. أصابه ألم شديد فـي بطنه. اشتم رائحة المؤامرة.. لقد حاول هو نفسه مع هذا الشاب ولكن الشـاب أبى. لماذا اختارت هذا الشاب بالذات.. أم هو الذي اختارها.. لابد أنه صارحها بما كان من أمره معه.. ولابد أنها صارحته بخيبة أملها فيه.. لعـل هذا ما جمعهما معاً.. وبالتأكيد سيكون هو موضوع حديثها وهما في الفـراش معاً.. سيتباهى هو برجولته، وستكيل هي له المديح وتعقد مقارنة بينهما.

قـال بتصميم: إذن لابد أن يموتا الآن.. تتبعهما.. طرق الباب ففتح له الشاب، أفرغ رصاصة واحدة في رأسه ثم انطلق كالمجنون يبحث عنها فـي أرجـاء المكان.. لم يعثر لها على أثر وكأنها تبخرت. أخذ ينادي: لا تخافي يا أمي.. أظهري.. لن أقتلك..

خرجــت مــن أحد الأركان وقد تكوم جسدها من الرعب. تحشرج صوتها وهي تخبره بأنها ليست أمه.. لم يمهلها فأطلق الرصاصة الثانية في بطنها والثالثة في قلبها والرابعة فيما بين عينيها.

انســحب مــن المكان بهدوء، ظهر في كل الأماكن التي اعتاد أن يظهــر فيها وبدا أكثر من طبيعي.. في اليوم التالي مباشرة سافر أمام كل الناس.. عاد بعد يومين.

اتجــه إلى مكتبه مباشرة.. وجد موظفيه في حالة وجوم.. بعد قليل جاء المحققون واستأذنوه في بعض الأسئلة الروتينية.

كــان الســؤال الأول كــيف عرفت بالخبر.. أجاب باطمئنان: من الصحف: قال المحقق إن الخبر لم ينشر في الصحف بعد.

. اضــطرب اضــطراباً شــديداً وعاد ليقول بل عرفت من موظفي المكتب..

أجهــز علــيه المحقــق حين قال له: إن الموظفين لا يعرفون حتى الآن.. وعلــى غــير مــا توقع المحققون كان شديد التماسك وهو يعترف اعترافاً تفصيلياً وإن لم تخل مقلتاه من طبقة رقيقة من الدموع جعلت عينيه تلمعان.



ضلالات الخيانة

أنا أرفض اعتذارك هكذا صرخت في وجهه.. وانهارت باكية.. من حقي أن ارفض اعتذارك.. وهل هناك اعتذار عن جريمة قتل، لقد طعنتني فـــي شـــرفي، والشـــرف ليس الإخلاص فقط ولكنه أيضاً الصدق والأمانة والاحـــترام، إنه كل القيم التي ترتكز عليها حياتي، طعنتك كانت سامة إلى الحد الذي أزهق روحي.. اعتذارك نوع من السذاجة يدل على أنك لا تعي المعانـــي الحقيقية المرتبطة بالشرف، سهولة الاتهام وسرعة الاعتذار عنه تعنـــي الخلل الشديد في بنائك الأخلاقي، وربما يخفي خلفه خللاً أخطر في بـــنائك النفسي وأشك حتى في أنك تعي ما أقوله لك الآن، ويا ليت أن لديك دليلاً على خيانتي.. دليلاً يقبله العقل وقابلاً لأن تثبته وقابلاً في نفس الوقت لأدحضـــه، إن دليلك هو أكبر دليل على الضلالات التي ارتكزت عليها في توجـــيه الاتهام لي، إن دليلك هو أكبر دليل على الخواء الذي تتحرك داخله فقضـــيتك باطلـــة مثلما أن قواعد الارتكاز عندك كلها باطلة زائفة خاوية متهاوية ينخر فيها السوس وتقرضها الفئران السامة.

تتهمنـــي بأننـــي خنـــتك مع صديقك قلتها بهدوء في جملة توسطت حـــواراً بينـــنا لا يتعلق بموضوع الخيانة" هذه يا ربي من علامات الساعة الكـــبرى، أن يـــتهم الزوج زوجته بالخيانة وهو مبتسم يحتسي الشاي، ثم يتراجع بنفس البساطة وبنفس الجدية التي أكد بها اتهامه..

وما دليلك ؟

دليلي هو النظرات المتبادلة بينكما.. اهتمامك بالسؤال عن أخباره. إعجابك بإنجازاته.. انبهارك بشياكته..

بالسخافة ما تقول.. ولا اقول بالفظاعة ما تقول، فاتهامك غير جدير بكلمـــة فظاعـــة، فالفظاعة تنم عن جرم خطير أما السخافة فتنم عن جرم حقير وتافه. وإذا كنت تفهم فاتهامي لك بالسخافة والتفاهة والحقارة أضخم وأبشـــع مـــن اتهامك لي بالخيانة، ورغم ذلك تطلب مني أن أسامحك وأن استمر في الحياة معك.

واستمرت الحياة ونسيت اتهامه لي بالخيانة، ولكن لم أنس أنه إنسان ضـــئيل.. وفـــي نفس الموعد بعد عام عاود اتهامه وفي هذه المرة اختار زميلـــي فـــي العمل كشريك لي في الخيانة ولكنه هذا العام كان أفضل من العـــام الماضـــي فقد انفعل وثار وهدد وتوعد وتركت البيت.. وبعد أربعة أشهر عدت بعد أن اجتمع على كل الناس الذين وسطهم.. عدت وقد خرج من قلبي تماماً، وعشت من أجل أولادي.

ولكني لاحظت تدهوراً قد أصابه، تلصصه على تليفوناتي، مراقبته لي، مفاجأتي بزيارته لي في العمل، تفتيشه لحاجياتي.

وتحملـــت وبذلـــت جهداً مضنياً لطمأنته، فيهدأ أحياناً ويقلق أحياناً أخـــرى، قلـــت لنفسي ربما سلوكي يستفزه ويقلقه فتحفظت وتركت العمل مؤقـــتاً، وقللت خروجي من البيت إلا للضرورة القصوى، فعاد إلى طبيعته وعاودني صفائي النفسي وشعر بأمل في أن أستعيد مشاعري كزوجة لهذا الرجل.

ومـــا أن انـــتهى العام حتى عاودته الشكوك والظنون، وثار وعنف وكســـر ذراعي وخرجت من البيت إلى غير رجعة.. أما هو فتأكيداته غير قابلة للنقاش ويقسم عليها.. هدوء يثير الشك في صحة تأكيداته ورغبته في استعادتها إلى البيت برغم أن يقينه من خيانتها يؤكد ضلالاته، إلا أنه يتألم مـــثل أي زوج تخونه زوجته، يرى أن هذه هي نهاية العالم وأن أي كارثة مهمـــا كان حجمها تتضاءل أمام خيانة زوجة، وأنه لا معنى لأي حياة إذا كانـــت هناك ولو زوجة واحدة خائنة في أي مكان في العالم، وأن السعادة الحقيقية هي مع زوجة صالحة، وأن صلاح الزوجة يعادل كل كنوز العالم.

ما دليلك:

لا يســـتطيع أي رجـــل في العالم أن يقدم الدليل الناصع على خيانة زوجـــته إلا إذا فاجأهـــا في الفراش مع عشيقها وهذا أمر صعب تحقيقه، ولكـــن هـــناك علامـــات أخرى يستطيع أن يكشفها الزوج ولا يخطئها أو يتجاهلها إلا كل بليد الذهن والشعور.

ما هذه العلامات؟

مـــا رأيـــك فـــي الملابس الفاضحة التي تكشف أول ما تكشف عن ســـاقيها وصـــدرها!! مـــا رأيك في الضحكات المجلجلة خاصة في وجود الرجال؟! وما رأيك في تقبلها لأحاديث مكشوفة مع الرجال!! ما رأيك في سهولة تعرفها بأي عابر سبيل؟!

هذه ليست علامات خيانة، ولكنها مظاهر سلوكية قد تدان في وسط اجتماعي معين ولا تدان في وسط آخر.

وفي رأيي أن من تأتي بهذه الأفعال لابد أن تكون خائنة.

وهل حاولت نصحها لتعديل سلوكها بشأن ملابسها وضحكاتها وسهولة تآلفها مع الرجال؟

حاولت دون جدوى إذن أنت لا تأثير لك عليها.

بل رغبتها في الخيانة أقوى..

ولماذا تريد عودتها إليك رغم تأكدك من خيانتها؟

أريدها أن تعود لتتوب وإلا انتقمت. لن أتركها تهرب بجريمتها.

هنا تكمن خطورة مثل هذه الحالات المرضية.. فكثير من جرائم القتل تحت مسمى دافع الشرف يموت مرتكبوها مرضى، وهو مرض كان يطلق عليه اسم الغيرة المرضية Morbid Jealousy وهو مسمى خاطئ لأن الأمر هنا تعدى حدود الغيرة، فالمريض يوجه اتهاماً صريحاً بالخيانة الكاملة، ولهذا فالمسمى الأفضل هو ضلالات الخيانة Delusions of Infidelity وصاحب هذا المرض لا تبدو عليه أي أعراض مرضية أخرى ولذا فقد يصدقه بعض الناس لأنه يبدو عاقلاً وقصته قد تكون محبوكة مقنعة، ولكنها ليست حقيقية. وهو لا يقتنع بأنه مريض ولذا يرفض العلاج وبذلك تكون الزوجة في وضع صعب جداً، فاستمرارها معه بدون علاج يعرضها للخطر، وإذا اقترحت العلاج فإنه يثور بعنف وتتأكد شكوكه بتآمرها مع عشيقها لاتهامه بالجنون. والمسئولية للجميع، وتحتاج إلى تضافر كل الأسرة، والمشكلة التي تبرز هنا هي أن أهله ونقصد بهم والديه أو أشقاءه قد يصدقون ضلالاته أو قد يهربون من المسئولية خوفاً منه، وتصبح الزوجة وحيدة في مواجهة هذه المشكلة الخطيرة والعلاج يحقق

نــتائج إيجابــية وســريعة وذلك عن طريق عقاقير تصلح من شأن الخلل الكيميائي الذي أصاب المخ.

وقد نصادف رجلاً قد خانته زوجته فعلاً ويملك الدليل القاطع وعقله السـليم.. والأمــر هنا يختلف عن الحالة السابقة، فالحزن عميق. والحالة أقــرب إلــى الأسى، والأسى هو الحزن على شخص عزيز قد مات، إنه حــزن الفقــد أو حزن الموت، وتتساوى الخيانة بالموت أو هي أفظع من الموت، ولذلك فالخيانة قد تنتهي بالموت، أي أن عقابها يكون الموت.. وإذا كــان الشــرك بالله يفسد العلاقة بين الإنسان والسماء فإن الخيانة هي كل الفســاد فــي الأرض ولا فســاد بعدهــا، وأصلها- أي الخيانة- فساد في التركيــبة الإنســانية، تماماً مثل الطعام الفاسد الذي تتحلل مكوناته وتصبح ســامة، وكما لا تستمر حياة مع طعام فاسد لا تستقيم حياة في ظل خيانة، فالخــيانة إبطال فوري للحياة، ولذا فمن الصعب استمرار حياة بين طرفين بعد ثبوت خيانة أحدهما سواء كانا زوجين أو صديقين أو زميلي عمل.. قد يحــاولان الاســتمرار ولكنها تصبح علاقة يشوبها الشك والتوجس والقلق والغم والهم.

علاقــة لا تشــبع، علاقة توجع القلب وترفع ضغط الدم، لا بنسيان ولكن بتناسيان.. والتناسي غير النسيان، التناسي معناه زحزحة المشكلة من بــؤرة الشعور المباشر.. ولكنها تظل قابعة في الظل حية ولكن أقل تأججاً وفــي الوقــت المناســب تقفز للمقدمة وتعود للظهور أكثر اشتعالاً وأكثر إحــراقاً. ولذا يظل الطرفان في حالة هروب مستمر كالذي ارتكب جريمة ويفلــت مــن تنفــيذ الحكم ولكنه يظل طوال حياته هارباً مشرداً، وهو في الحقــيقة هروب من النفس.. والهروب من النفس هو هروب مكشوف مثل

لعــب الأطفال، ولذا فقد يلجآن إلى الخمر أو الأقراص المهدئة أو المقامرة أو الدخــول فــي مغامــرات جديدة، أي مزيد من الانغماس في الوحل أو الســقوط صــريعى المــرض النفسي أو العقلي وهذا هو الحل الأسهل أو الأمــثل. وتكون النهاية عند الطبيب النفسي والذي قد ينصحهما بالانفصال ضد إرادتيهما، أو قد يجد مبرراً مرضياً للخيانة التي حدثت وهذا قد يكون حقيقياً في بعض الحالات.